السياق

التشبيه الطبيعي

عند مفكري الإسلام

— ١ —

إدراك الغيب

عند الأنبياء

العلم النبوى :

النبي عند أهل الكتاب هو الملهم الذى يخبر بشيء من أمور الغيب المقبلة ، ولعل الأصح أن يقال إنه من يتلقى من الله وحيًا ، إن أمره بتبليغه كان رسولا[١] ، وهو عند الأشاعرة من اصطفاه الله من عباده وأرسله لتبليغ رسالته[٢] ، والرسل قوم اصطفاهم الله من بين البشر وفضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل اتصال بينه وبين عباده ، ليقوموا بهدايتهم ، ويظهر الله على ألسنتهم الخوارق، وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر مما لا يعلمه إلا الأنبياء بتعليم من الله[٣] . ذلك أن العلم

---

(١) السيد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٢٥

(٢) النبهانى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٨ ويقول الأستاذ الإمام فى تعليقاته على شرح الجلال للعقائد العضدية — بعد ذكر تعريفات للنبي — إن النبي يعرف بأنه إنسان فطر على الحق علما وعملا ، لا يحتاج فى هذا إلى فكر ونظر ، وإنما يكفيه التعليم الإلهى .... وقد أخذه على هذا التعريف فى قسوة الشيخ مصطفى صبرى فى كتابه السالف الذكر (ص ٤٠ — ٤١ وهامش ص ١٥٥) لأن التعريف لا يتضمن شيئا من خصائص النبوة من وحى وملك مرسل وكتاب منزل ومعجزة — ولعل النص على التعليم الالهى فى تعريف الأستاذ الامام يخفف من حدة هذا النقد .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٩ ولكن رأى ابن خلدون فى هذا الصدد ، يخالف الاتجاه الحديث ، الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات ، ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متمشية مع سنن الكون ، مسايرة لطبائع الأشياء ، وبهذا يمتنع وصفها بالخوارق — ويقال إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول . وما عداه شبهة لا حجة . وقد تصدى لدفع هذا الاتجاه الشيخ مصطفى صبرى ، وهاجم من أجله بعض أعلام المحدثين من رجال الدين وغيرهم فى مصر .

الإنسانى يحصل عن طريقين ، أحدهما طريق الاستدلال والتعلم ويسمى اعتباراً واستبصاراً ، ويختص به العلماء والحكماء ، والآخر يهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى[1] وقد يسمى بالتعلم الربانى ويكون بطريقين : أولها إلقاء الوحى فى النفس التى كملت ذاتها وزال عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل والرغبة عن شهوات الدنيا والإقبال على بارئها والتمسك بجود مبدعها ، فيقبل الله بحسن عنايته على هذه النفس ، ويتخذ منها لوحاً كما يتخذ من النفس الكلية قلما ينقش فيها جميع علومه ، وهذا ما يقع للأنبياء ، أما الوجه الثانى فالإلهام الذى يتوافر للأولياء[2] ، وسنعرض للحديث عنه بعد قليل .

ولا يكون العلم الذى يتهيأ للأنبياء من باب الإلهام أو الظن أو التوهم أو الكهانة أو النجوم أو الرؤيا التى لا يعرف صدقها من بطلانها ، وإنما يكون عن وحى إلهى[3] ، وقد قيل إن الوحى شرعا : إعلام الله لنبى من الأنبياء بحكم شرعى أو نحوه ، ولعل الأصح أن يقال إنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع التيقن بأنه من قبل الله بوساطة أو بغير وساطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه ، أو بغير صوت يبلغ أذنه ، ويفرق بينه وبين الإلهام ، بأن الأخير قد يحصل من الحق بغير وساطة الملك وهو من خواص الولاية[4] ، أو هو وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى

---

(١) معالى الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق : تعليقه على مقال التصوف بدائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)

(٢) الغزالى ، الرسالة اللدنية ص ٣٩ ــ ٤٣ ــ الطبعة الثانية عام ١٣٤٣ هـ

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ج ٥ ص ١٧

(٤) ابن العربى ، فصوص الحكم ص ٣١ وما بعدها وانظر مختلف معانى الوحى فى مادة Wahy للأستاذ « فنسنك » A. J. Wensinck فى دائرة المعارف الإسلامية

ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[١] ومن هنا قيل فى التفرقة بين الأنبياء والأولياء : إن العبد إذا لم يدر كيف حصل له العلم ومن أين حصل ، سمى علمه إلهاماً ونفثاً فى الروع ، وكان هذا خاصاً بالأولياء ، فإن اطلع المرء مع هذا العلم على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب ، سمى العلم وحياً وكان خاصاً بالأنبياء ، وإن كان العلم فى الحالين يحصل فى القلوب بوساطة الملك[٢] ، وإن قيل مع هذا إن الإلهام ليس مقصوراً على الأولياء ، فإن الوحى الظاهر ثلاثة أصناف : أولها ما ثبت بلسان الملك كالقرآن ، وثانيها ما وضح بإشارة الملك من غير بيان بالكلام ، ويسمى خاطر الملك ، وثالثها الإلهام ، والأنواع الثلاثة حجة مطلقة ، وهذا بخلاف الإلهام ، فإنه لا يكون حجة على غيره[٣] ، والإلهام بهذا المعنى وارد غيبى من الله المؤثر فى كل شىء[٤] ولكن قوما من مثبتى النبوات منعوا أن تكون النبوة عن خطاب أو نزول ملك ، لانتفاء المخاطبة الجسمانية عنه تعالى ، لأنه ليس بجسم ، والملائكة لا يهبطون لأنهم من العالم العلوى وهو بسيط ، كما أن العالم السفلى كثيف لا يعلو ، واختلف أصحاب هذا الرأى فيما أدى إلى النبوة عند أهلها ، فقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء بالإلهام لا بالوحى ، وهذا فاسد عند البعض ، لأن الإلهام خفى غامض يدعيه المحق والمبطل . وقال بعضهم إنهم صاروا أنبياء لأن الله اصطفاهم وأكسبهم ما له من

---

(١) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) الغزالى فى الأحياء ج ٣ ص ١٦ (الطبعة الأولى عام ١٣٥٢ هـ)

(٣) التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٥٣٣

(٤) المصدر السالف ، ج ٢ ص ١٣٠٨

خواص وأسرار تخالف مجرى الطبائع ، وهذا فاسد أيضا ، لأن خفاءها غير دليل على صدقه ، ثم إنه يكون نبياً عن نفسه لا عن ربه ، وعندئذ يصبح كغيره[١] .

وعلى هـذا فالوحى فى معناه العام : إنباء عن أمور مغيبة عن الحس ، يقدح فى النفس دون كلفة ولا قصد[٢] ، ويرى فلاسفة الشريعة أن النبي من اجتمعت له خواص : أولاها أن يكون ذا اطلاع على الغيب الذى طواه الماضى ، أو أخفاه المستقبل ، وليس المراد أن يطلع على كل شيء ، بل حسبه أن يعرف بعضه ، وليس المراد أى بعض كان ، بل المقصود ما لم تجر به العادة دون أن يسبق ذلك تعلم أو تعليم[٣] . ومن هنا قيل إن الأنبياء يطلعون على الغيب بوحى إلهى لا شك فى صدقه ، وقد قيـل إن الله يختص برحمته من يشاء من عباده ، فلا يشترط فيهم شرط ولا استعداد ذاتى ، وإن كان المعروف عند المسلمين ، أن النبوة لا تجيء اكتسابا[٤] ولكن كيف أثبتوا إمكان الوحى ... ؟

إمكان الوحى :

هذه نقطة عالجناها فى الباب السالف[٥] وحسبنا أن نضيف الآن إلى ما قلناه ، أن بعض النفوس — فيما يرى البعض — فيها استعداد فطرى لذلك ، وليس فى هذا

---

(١) الماوردى : أعلام النبوة ص ١٦ — ١٧

(٢) إخوان الصفا : ج ٤ ص ١٤٤

(٣) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٣٥٩

(٤) مصطفى صبرى : النقول الفصل ص ١٤٧ وما بعدها (طبعة القاهرة ١٣٦١ هـ)

(٥) عند الحديث على « مذاهب المفكرين فى تفسير الوحى والالهام » وكذلك « علة الادراك الغيبى » فى الفصل نفسه ، ثم قارن فى الفصل التالى ما ذكرناه عن « إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفى » .

بدع ولا عجب ، إذ أن البديهة تشهد بأن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه من الإجمال ، وليس ذلك لتفاوت المراتب فى التعليم وحده ، بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، وهـذه المقدمات تسلمنا لا محالة إلى القول بأن من النفوس البشرية ما يكون له من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به ، من محض الفيض الإلهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيـان ، ما لم يصل غيرها إلى تعقله وتحسـه بالدليل والبرهان[1] . والملحوظ أن النفوس قسمان : أحدهما يعوزه التعليم ، وثانيهما غنى عنه بفطرته ، وما يحتاج إلى التعليم منه ما يتأثر به وإن طال تعبه ، ومنه ما يصيب العلم سريعاً فى غير إبطاء ، ومن الناس من يستنبط الشىء من ذاته ، دون حاجة إلى معلم ، وليس ذلك ببدع ، فإن أول معلم لم يسبقه معلم ، وإنما ارتقى إلى العلم بنفسه ، دون الاستعانة بكائن ما ، ذلك أن النتيجة تخطر بباله « فيتنبه للحد الأوسط ، كأنه الذى فى نفسه من حيث لا يدرى ، أو يبتدر للحد الأوسط فتحضر النتيجة ، كمن نظر إلى سقوط الحجر إلى أسفل ، فخطر له أن الحجر ما كان ليهوى لولا اختلاف الجهتين ثم يخطر له أن اختلاف الجهتين لا يكون إلا فى البعد عن جسم والقرب منه ، ولا يمكن تصور هذا إلا بمحيط ومركز ، فيستنتج من هذا أن السماء محيطة ، ولابد من وجودها ، ومثل هذا غير محال ، وإذا خطر فليس بمحال أن يتمادى إلى آخر المعقولات . » إما فى زمان طويل أو قصير « فمن انكشفت له مثل هـذه المعقولات فى زمان قصير ، وإن تعلم على معلم أو كتاب أو نحوه ، كان نبياً ، وكان هذا معجزة له ، وهذا ممكن ومعقول ،

---

(١) محمد عبده : المصدر السالف ص ١١٠ ــ ١١١

فإن بين المتعلمين من يسبق إخوانه مع قلة جهده ، وتساوى مدة التعلم عند الجميع ، لأن شدة حدسه وقوة ذكائه ، تمكنه من التفوق عليهم ، وإن قل عنهم اجتهاده ، وإن صح هذا فالزيادة فيه من الممكنات[١] .

وفى بعض النفوس قوة لا تشغلها الحواس ، ولا تستوعبها بحيث تستغرقها وتمنعها عن أداء وظيفتها ، وقد تقوى حتى تجمع بين الكتابة والكلام فى آن واحد، ومثل هذه النفوس قد يفتر عنها شغل الحواس ، فتطلع إلى عالم الغيب ، وتكشف بعض مجاهله فى سرعة البرق الخاطف ، وهذا النوع من النبوة ، فإن ضعفت الخيلة وعت الذاكرة ما انكشف للنفس ، دون أن تضيف إليه شيئا أو تحذف منه شيئا ، فيكون وحيا صريحا لا يعوزه التأويل ، وإن قويت المخيلة انعكست الآية ، وشابه الحال الرؤيا التى تحتاج إلى تعبير[٢] .

تلاقى النبوة والفلسفة :

والعلم الذى يجىء عن طريق الوحى ، لا يختلف فى نتائجه عن العلم الذى ينتهى إليه النظر العقلى والاستدلال المنطقى ، وإن اختلف الطريق فى كل منهما ، ومن هنا تلاقت النبوة والفلسفة ، إذ قيل إن المعرفة التى تجىء عن طريق الوحى ، إن قابلها صاحبها بما عند العلماء من حقائق ، ألفاها على اتفاق معها ، لأن العلل والمبادىء واحدة ، فإذا أخبر بها من وصل إليها من أسفل بالتفلسف ، اتفق رأيهما وصدق أحدهما الآخر بالضرورة ، وبادر الفيلسوف إلى قبول ما يأتى به النبى أو الكاهن ،

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٧ — ٣١٨ — الطبعة الأولى عام ١٣٣١ هـ

(٢) الغزالى : فى المصدر السالف ص ٣١٢

لأنهما على اتفاق ، والفرق بينهما أن أحدهما ارتقى من أسفل ، أما الآخر فقد انحط من علٍ ، والمسافة بين السطح والقرار واحدة ، ولكنها بالإضافة إلى من بالقرار تسمى صعوداً ، وبالإضافة إلى من فى السطح تسمى هبوطا ، والأنبياء فى هذا كله متفاوتون ، فقد يكشف أحدهم ما يطويه المستقبل بعد قرن ، ويكشف غيره ما تخفيه عشرة قرون تالية[١] ، كما يتفاوت الفلاسفة فى معرفة الحقائق وسبر غورها[٢] .

نماذج من نبوءات رسول الله :

نبوءات الرسول كثيرة ، فحسبنا أن نتخير القليل منها ، مما ورد فى القرآن الكريم:

١ — « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سيَغْلِبون فى بضع سنين..» سورة الروم — قاتلهم الفرس المجوس فى أرض العرب ، حتى وصلوا طريق الحجاز وغلبوهم حتى بلغوا المدائن ، ولكن الوحى قد نزل على رسول الله يقول إن هذه الهزيمة ستتحول نصراً ، فى بضع سنين ، هى ما بين الثلاث والعشر — الله يعلم السنة واليوم والساعة التى سيقع فيها النصر ، وقد أنبأ رسوله بذلك ، ولكنه لم يأذن فى إظهاره لأن الكفار كانوا معاندين ... الخ[٣]

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٣ — ٤ وانظر فى تشابه غاية الدين والفلسفة : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لمالى مصطفى باشا عبد الرازق — ومصادره التى رجع إليها ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ساور الشك بعض المستشرقين من منكرى الوحى الالهى ، وقد تولى الرد على شبههم السيد رشيد رضا فى الوحى المحمدى ص ٩ وما بعدها ومعالى الدكتور هيكل باشا ص ٤٠ — ٤١ من كتابه حياة محمد فى طبعته الثانية .

(٣) الرازى : مفاتيح الغيب ج ٦ ص ٤٦٦ وما بعدها . وقد أورد القاضى أبو الفضل عياض فى مخطوط له « شفا بتعريف حقوق المصطفى » — ٢١١٩٩ ب بدار الكتب — أمثلة كثيرة ، بالغ فيها حتى قال إن الرسول قد تنبأ بما كان وما سيكون إلى قيام الساعة . . ! ! انظر من ظهر ورقة ٩٣ — ورقة ٩٦)

٢ — وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكّنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ... سورة النور آية ٥٥ .

أنبأ النبى أصحابه بأن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، سيكونون الخلفاء والغالبين والمالكين ، سيفتحون بعده بلاد الشام و بلاد الفرس ومصر ويستولون على ملك كسرى وقيصر .... كما استخلف من قبل زمن داود وسليمان عليهما السلام ، ويمكن لهم دينهم فيؤيده بالنصر والاعتزاز ، ويبدلهم بعد الخوف أمناً ، فيكفل لهم النصر على أعدائهم والأمان من شرهم ... الخ[1]

٣ — وقد أشرنا إلى أن البعض يقول إن رؤيا الرسول وحى إلهى ، والله تعالى يقول : « لقد صَدَق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ... الآية سورة الفتح آية ٢٧

رأى الرسول أن المؤمنين سيدخلون مكة ويتمون الحج ، ولم يعين وقتاً له ، ولما قص رؤياه على المؤمنين ، ظن أن دخولها سيكون عام الحديبية ، ولكن الله يعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح ، فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا ، فقال تعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ...[2]

حسبنا هذه الإشارات الموجزة ، إلى بعض نبوءات الرسول كما وردت فى التراث الإسلامى . ولكن لنا ملحوظة ينبغى أن نقف عندها قليلا :

---

(١) المصدر السالف ص ٢٨٧ — ٢٨٨ والسيد رشيد رضا فى الوحى المحمدى .

(٢) المصدر السالف ج ٧ ص ٣٩٧

القرآن والعلم :

التمس بعض المحدثين من مفكرى الإسلام فى القرآن ، نوعاً غريباً من العلم بالغيب ، فقالوا إن القرآن تنبأ بجميع مخترعات العلم ومكتشفاته ، وكافة ما وصل إليه وما يمكن أن يصل إليه البحث العلمى من أصول .. ! وأسرف أصحاب هذا النزوع إسرافاً ملحوظا ، وحمّلوا ألفاظ القرآن فوق ما تطيق ، وكاد بعضهم أن يحوّل كتاب الله إلى كتاب فى علم الفلك أو الطب أو الطبيعة أو غيرها ... ! وأيّد هذا الاتجاه « الكواكبى » ومحمد عبده ، وفريد وجدى ، والدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل وغيرهم من المعاصرين فى مصر على ما يعرف القراء .

والرأى عندنا ـ مع تقدير وجه الإخلاص عند هؤلاء المفكرين ـ أن محاولاتهم للبرهنة على أن كل ما يجِدُّ فى مجال العلم، متضمن فى نصوص القرآن، إخراج للدين عن نطاقه ، وإسراف قد يضر ولا يفيد ، لأن حقائق الدين ثابتة لا تتغير ، وحقائق العلم تتطور مع الزمان ، وتتغير بتقدم النظر العقلى ، وترقّى منهج البحث العلمى ، فإذا كنا سنربط الدين بالعلم ، كان معنى هذا أن تتغير المعانى التى تحملها آياته ، تبعاً لتغير النظريات التى ينتهى إليها البحث العلمى ، وقد علق أستاذنا الدكتور طه فى مقال ممتع له ، على محاضرة حاول الشيخ محمد بخيت أن يستنبط فيها من نصوص القرآن : كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الليل والنهار ... الخ[1]

وقال إن الأستاذ « نوردمان » Nordmann قد وضع فى السنين الأخيرة كتاباً

---

(١) طه حسين : من بعيد ص ٤٨ ـ ٥٢

عن مملكة السموات ، انتهى فى فصل منه إلى استحالة البرهنة على دوران الأرض بطريقة علمية قاطعة .. ! ثم عقب الدكتور على هذا بقوله : إذا انعقد الإجماع على أن الأرض لا تدور ، كما كان منعقداً على ذلك منذ قرون ، وحين نزل القرآن الكريم ، فأين تذهب جهود العلماء الذين حاولوا هذا النوع من التوفيق . . ؟

بين الدين والعلم فى هذا العصر :

هذه المحاولات ليست جديدة فى تاريخ العلاقة بين الدين والعلم ، فشت فى العالم المسيحى ، منذ أخذ رجال الدين أنفسهم بالتوفيق بين نظرية بطلميوس وموقف المسيحية من ثبات الأرض ودوران الشمس حولها .. ! فلما استيقظ النظر العقلى ونهض البحث العلمى ، وابتعث كوپرنيكوس + ١٥٤٣ وجاليليو + ١٦٤٢ رأى متأخرى الفيثاغورية من أمثال أرسطرخوس + ٣١٠ ق. م فى دوران الأرض المزدوج ، ناهضت الكنيسة هذه الدعوة ، وارتكبت فظائعها مع رواد الفكر الحديث ، حتى إذا استقر العلم عند الرأى الأخير ، أخذ رجال الدين يجاهدون فى سبيل التوفيق مرة أخرى ، بين هذا الرأى الحديث ونصوص الكتاب المقدس .. ! ولم تزل بعدُ تفاصيل هذه الأحداث وأمثالها ، مثار السخرية عند جمهرة المؤرخين ، فمن الحكمة ألا نزل فى خطأ زل فيه غيرنا ، وأن نتخذ من سقطات السابقين عبرة وعظة .

منابع التفكير الإسلامى فى الوحى : موقف القرآن الكريم :

من الطبيعى أن أتتبع هذه الأفكار السالفة فى القرآن ، فإن الدين لا يستقيم بغير النبوة والوحى ، والملحوظ أن تعريف الوحى على النحو الذى أسلفناه ، مأخوذ عن الآية الكريمة التى تضمنت أنواعه الثلاثة : إلقاء المعنى فى القلب ، والكلام من

وراء حجاب ، وما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله فى صورة ما ، قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه علىٌّ حكيم[١] »

وأما إدراك النبى لعالم الغيب دون تعلم أو تفكر ، فإن هذا مرجعه إلى قول الله لنبيه الكريم ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، أى بغير وساطة ما ، وتشهد بهذا قصة آدم الذى لم يكتسب علما ما ، والملائكة الذين حصّلوا من العلم ما جعلهم أعلم الموجودات طراً ، فلما فاخرته ، قال ، أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ... إلى آخر ما يذكره الغزالى للتدليل على ارتفاع العلم الربانى على العلم الإنسانى[٢] . أما إمكان الوحى وتفسيرهم العقلى له ، فقد يكون وليد تفكيرهم ، وربما دخلت هذا عناصر من تراث قديم وصل إليهم ، والملحوظ أن الفارابى الذى شاد نظرية اتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال ، وإدراك الغيب عن طريق هذا الاتصال ، قد استمد الكثير من عناصر هذه النظرية ، من نظرية الفيض أو الصدور عند « أفلوطين » كما صورها الفارابى فى بعض رسائله[٣] . وقد جرى على نهجه ابن سينا فى تصوير هذه النظرية[٤] .

---

(١) سورة الشورى آية ٥١

(٢) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣ ويلاحظ أننا نؤرخ ما يقول ، دون أن نؤيده ، لأنه لا يوثق به كحدث .

(٣) الفارابى : مقالة فى معانى العقل نشرة الأب يويج وتصويباته .

(٤) قارن ما سنذكره فى تعليل الرؤيا الصادقة ، استناداً إلى إشارات ابن سينا ورسالته فى النبوات ثم انظر ص ١٢٩ ــ ١٣١ من كتابنا «الأحلام» .

موقف اليونان والرومان من الوحى :

عرف هؤلاء ما يشبه أنواع الوحى الثلاثة التى وردت فى القرآن ، فالكلام بحيث يسمع النبى ولا يرى كما وقع لموسى ، قد وقع لسقراط كثيراً ، وكان الصوت كثيراً ما يمنعه من الإقدام على عمل ما ، وإن كان لا يدفعه إلى عمل ما ، وأحداثه فى ذلك كثيرة تعبها كتب سيرته[١] ، ولم يقع هذا لسقراط وحده ... وكما وقع لليونان ، كان يحدث للرومان ، وكثيراً ما كانت تسمع هذه الأصوات النذرة الزاجرة فى أحرج الأوقات[٢] .

وظهور الملك ، وهو ثانى أنواع الوحى ، قد يتجسم فى صورة رجل مثلا ، وقد قيل إن أطياف الآلهة ، كثيراً ما كانت تظهر وكأنها مجسمة فى مادة — مع أنها مفارقة لها ، وقد تظهر أحيانا غير متقومة فى مادة[٣] .

أما النوع الثالث ، وهو إلقاء المعانى فى النفس دون تعلم ، فقد كان مألوفا شائعا ، إذ أوتى البعض ملكة التنبؤ بحيث يستطيع أن يرى ما لا تراه العيون ، ويسمع مالا تسمع الآذان ، وقد كانت كاهنة دلفى وغيرها من هذا الصنف .

وأشياع القدرة على الإدراك الغيبى ، كانوا يرون فى تفسير هذا الوحى ، مايشبه آراء المسلمين فى هـــذا الصدد ، إذ قالوا إن فى باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما — وهم يعزونها إلى الوحى — وبهذه القوة تتمكن النفس من كشف الغيب

---

(١) قارن شيشرون فى الفقرة ٥٤ من الكتاب الأول و « پلوتارك » فى حديثه عن شيطان سقراط (قارن تعليق « لويب » على هذه الفقرة) .

(٢) قارن المصدر السالف فى الفقرة الخامسة والاربعين .

(٣) قارن المصدر السالف فى الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الاول .

المحجب ، متى أدركها الجذب الإلهى ، أو جردها النوم من علائق الجسد[١] وقالوا كذلك إن النفوس على خلاف وتفاوت فى طبيعتها ، وأنها أقوى ماتكون فى الرائين والعرافين ومن إليهم[٢] .

وهكذا نلاحظ قيام التشابه بين آراء اليونان والرومان من جهة ، وآراء المسلمين من جهة أخرى ، وإن كان هذا لايبرر الجزم بنقل أولاء عن هؤلاء ، مادام القرآن قد استوعب بذور آراء المسلمين كلها على وجه التقريب ، وسنعرض لبقية وجوه التقابل بين الفريقين ، عند الكلام على منابع التفكير الإسلامى ، فى إدراك الغيب عند أهل الكشف الصوفى .

---

(١) المصدر السالف فى الكتاب الثانى فى الفقرة الثامنة والاربعين والفقرات التى تليها .

(٢) قارن المصدر السالف فى الفقرة السادسة والثلاثين من الكتاب الاول .

— ٢ —

إدراك الغيب

عند أهل الكشف الصوفى ومن إليهم

علاقة الولاية بالنبوة :

من المتصوفة من رفع الولاية إلى مرتبة النبوة ، ومنهم من فصل بينهما بفروق شكلية ، لا يكاد المرء يلحظها ، ومنهم من آثرها على النبوة ، وخلع على الولى من قدس الصفات مالا يتوافر فى الأنبياء ، ولعل تفصيل هذا يمكننا من أن نفهم مدى اطلاع الأولياء على عالم الغيب ..

الولاية دون النبوة :

يرى المعتدلون من الصوفية أن الولاية دون النبوة ، ويصرحون باستئثار الأنبياء بالوحى ، واستئثار الأولياء بالإلهام ، ويقررون بأن الإلهام دون الوحى ، ومن أجل هذا كان الولى دون النبى[١] والولاية درجة مختصرة من النبوة[٢] ، ويرون أن الأنبياء يمتازون على الأولياء ، بأنهم يعرفون مصدر العلم الذى يهجم على قلوبهم ، ويتبينون كيفية حصوله ، ويرون الملك الذى يلقى بالعلم إلى نفوسهم[٣] .

---

(١) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣ وردد أقواله ابن خلدون .

(٢) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٤ طبعة عام ١٣٤٣ هـ

(٣) الغزالى : الأحياء جـ ٣ ص ١٦

الولاية صنو النبوة :

ولكن المتطرفين من الصوفية لايسلمون بهذا الرأى فيما يظهر ، بل يرفعون الولاية إلى مرتبة النبوة ، بل يجعلون النبوة دون الولاية ... فهم يقولون إن الولاية صنو النبوة ، لأن من الوحى ما يلقيه الله إلى البشر من غير وساطة ، فيُسمعهم فى قلوبهم حديثا لا يأخذه ولا يصوره خيال ، ولا يعرفون مصدره ولا سببه ، ولكنهم مع هذا يعقلونه ويدركون مابه[١] بل ليست الولاية فى واقع الأمر إلا باطن النبوة[٢] لأن النبوة ظاهرها الإنباء وباطنها التصرف فى النفوس بالحق ، وإجراء الأحكام عليها ـ وهذا هو الولاية[٣] ، والنبوة قسمان : نبوة تشريع ونبوة ولاية ، فالنبوة كالرسالة من حيث أنهما قد انقطعتا من وجه ، هو مسمى النبى والرسول ، ولهذا قال النبى : لا رسول بعدى ولا نبى[٤] ، وقصد بذلك أن ليس بعده مشرع يحلل ويحرم[٥] ، لأن نبوة التشريع قد انقطعت بممات الرسول[٦] ، وبقيت نبوة الولاية ، وهى مجرد إخبارات إلهية يجدها العبد فى نفسه ، من وجوه الغيب أو تجليات لايتعلق بها حكم يحلل شيئاً أو يحرمه ، وتكون بغير روح ملكى[٧] ، ولا يسلمون

---

(١) ابن عربى : الفتوحات المكية ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ وإن كان هذا لايتنافى مع رأى الغزالى السالف الذكر .

(٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ٣٩

(٣) التهانوى ، كشاف الاصطلاحات ج ٢ ص ١٥٢٨ ، ١٥٢٩

(٤) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٥) المصدر السالف ص ٧٠ و ٤٩٤

(٦) المصدر السالف : ص١١٨ وقد ردد رأيه الشعرانى فى اليواقيت والجواهر ج١ ص٢٢

(٧) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٦ ـ ٧

بأن الأولياء لا ينزل عليهم ملك ، ويزعمون بأن الملك الذى ينزل عليهم هو ملك الإلهام ، وقد فصل ابن عربى ضروبه وعاب على الغزالى قوله : إن الملك ينزل على نبى ولا ينزل على ولى ، وردّ خطأ الغزالى فى ذلك إلى عدم الذوق ؛ وزعم بأن ملك الإلهام قد نزل عليه ، وإن لم يحمل أمراً ولا نهياً[١] ، وردد تلامذته رأيه[٢] مع أن الغزالى فيما يلوح لنا لم ينكر الملك ، وإنما أنكر رؤية الولى له ، إذ قال « فإن العلم إنما يحصل فى قلوبنا بواسطة الملائكة »[٣] ، ويقرر فى مكان آخر بأن الاتصال بالله إما أن يكون مباشرة أو بواسطة ملك[٤] .

الولاية أسمى من النبوة :

بل إن ابن عربى لم يكتف مع تلامذته بذلك ، بل ضمت آثارهم نصوصا تنبئ بإيثار الولاية على النبوة .. !![٥] فالنبوة تقوم فى هذه الدنيا ، أما فى الآخرة فإن التشريع ينقطع وتبطل أحكامه ، وهناك يظهر أن الولاية خير من النبوة .. ! وقد سمى الله نفسه ولياً ولم يسم نفسه نبياً ، ولله عباد ليسوا بأنبياء ، ولكن النبيين يغبطونهم بمقامهم ، فهم بغير أتباع لفنائهم فى الدعاء لله ، فإذا حل يوم البعث لم يدركهم الفزع على أنفسهم أو أممهم ، كما هو الحال فى أنبياء التشريع[٦] ، وليس ينبغى أن يقال للولى إنه وارث ، لأنه لا يرث النبوة عن نبى ، ولكن الحق يأخذها

---

(١) المصدر السالف : ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٩

(٢) الشعرانى ، فى اليواقيت ج ١ ص ٧٤ — ٧٦ طبع المطبعة الميمنية ١٣١٧ هـ

(٣) الغزالى : الأحياء ج ٣ ص ١٦

(٤) الغزالى : تهافت الفلاسفة ص ٦٢

(٥) ينبغى أن ننص فى هذا الصدد ، على أن فى كتب ابن عربى والشعرانى نصوصا كثيرة أخرى ، تنص صراحة على أن الولاية فى كل صورها أدنى من النبوة .

(٦) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٨٠ ، وابن العربى فى الفتوحات ص ١٦٥

أولا ثم يردها للولى ، ليكون ذلك أتم وأكمل فى حق الأولياء ، إذ يأخذون علمهم عن الحى الذى لا يموت ، ولا يأخذونه ميتا عن ميت[١] .

إلى هـذا ذهب المتطرفون من المتصوفة ، فى بعض ماضمت آثارهم من آراء ، وإن كانوا ـ فيما يلوح ـ يخشون الاتهام بالزندقة ، ويرهبون مغبة التصريح بهذه الآراء ، فيقررون فى مواضع أخرى ما ينقض دعواهم ، ويصرحون بأن الولاية بالغا ما بلغت ، إنما تستمد من النبوة نورها ، ولا تلحق نهايتها بداية النبوة أبدا[٢] .

هذه هى علاقة الولاية بالنبوة عند أهل التصوف ، ومنها نرى أنهم رغم تفاوتهم فى تقدير الولاية ، فهم على اتفاق فى ربطها بالنبوة ، وتقرير العلم الذى يجىء أهلها إلهاما وكشفا ، دون نظر عقلى أو استدلال منطقى .

الكشف عند الصوفية[٣] :

الكشف اصطلاحا : هو الاطلاع على ماوراء الحجاب من المعانى الغيبية والأمور الحقيقية ، وهو صورى ومعنوى ، والأول يقع فى عالم المثال من طريق الحواس الخمس ، عن طريق المشاهدة أو السماع كما وقع للنبى ، حين كان يسمع الوحى كلاما أو كصلصلة الجرس ، أو على سبيل الاستشفاف وهو التنسم بالنفحات الإلهية ، والتنشق لفتوحات الربوبية ، أو على طريق الذوق ... وأما الكشف الصورى فقد يتصل بالأمور الدنيوية ، فيسمى رهبانية ، لاطلاع أهله على الحوادث الدنيوية بحسب

---

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٣٥ ويردد الشعرانى أقواله

(٢) الشعرانى : اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٦٤

(٣) قارن « إمكان الوحى » فى الفصل السالف ، و « علة الإدراك الغيبى » و « مذاهب المفكرين فى تفسير الوحى » فى الباب الأول من هذا الكتاب .

رياضتهم ومجاهداتهم ، وهذا استدراج ومكر بالعبد ، وقلما تقع هذه الكاشفات مجردة من الاطلاع على المعانى الغيبية . وأما الكشف المعنوى المتجرد من صور الحقائق ، الحاصل من تجليات الاسم العليم والحكيم ، فهو ظهور المعانى الغيبية والحقائق العينية ، وهو أيضاً مراتب كالحدس والنور القدسى ، وقد فصل ابن عربى فى شرح هذا كله[1] .

وقد جرى الصوفية على القول بالعلم الذى يجىء عن طريق الكشف ، فى مقابل العلم الذى يجىء عن طريق البحث والبرهان ، ويشبه الكشف عندهم « العيان » و « الذوق » و « الحدس » و « الإلهام » وهى ألفاظ شائعة فى كتب الصوفية من الغزالى والسهروردى والشيرازى وغيرهم . وهم يرون أن النفس إذا انجذبت تجافت عن دار الغرور ، وأقبلت على السلوك إلى الله — كما يقول الغزالى ، وسنعود إلى الحديث عن هذا الجذب عند الكلام على منابع التفكير الإسلامى .

عوائق الكشف الصوفى :

وإذا كان الله تعالى يصطفى للرسالة والنبوة من شاء من عباده ، دون شرط أو استعداد ذاتى على نحو ما عرفنا من قبل ، فإن الثابت عند مفكرى الإسلام ، أن النفس بطبيعتها مهيأة لقبول الوحى والإلهام معا ، معدة لارتياد مجاهل الغيب المحجب ، متى تخلصت من علائق البدن فى يقظة أو منام ، لأن على القلب غشاوة من شهوات الجسم ومشاغل الدنيا ، وإنما تنقشع عن عيون الأنبياء والأولياء الممتازين ، بهذا تحصل المعلومات بالهام إلهى لبعض القلوب على سبيل المبادأة أو المكاشفة ، وأقصى

---

(١) ابن العربى : فصوص الحكم ص ٢٨ — ٣١ (شرح الشيرازى)

الرتب فى ذلك رتبة النبي الذى تنكشف له الحقائق دون تكلف أو اكتساب[١] ، وما منعت أنوار العلوم عن القلوب ، لأن الله ضنين بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولكنها تحتجب لخبث القلب وكدره ومشاغله الدنيوية ، والقلوب التى تمتلئ بغير الله ، لاتدخلها المعرفة بجلال الله ، لأن القلوب كالأوانى إن امتلأت بالماء لم يدخلها الهواء[٢] ، وليس هـذا وحده الذى يعوق الكشف ، فإن القلب محل العلم ، وهو بالإضافة إلى الحقائق كالمرآة بالإضافة إلى صور الأشياء ، فقد يمنع ظهور الصور فيها نقصان صورة المرآة أو صدؤها وكدورتها أو عدم مواجهة الصورة للمرآة ، أو لوجود حجاب بينهما ، أو للجهل بجهة الصورة ، وكذلك الحال فى القلب ، لاتنكشف فيه الحقائق لنقصانه ـ كقلب الطفل ، أو لما يملوه من شهوات تطفىء إشراقه ، أو انصرافه إلى غير الله ، أو قيام حجاب من اعتقادات تقليدية جمدت فى النفس ، وصارت حجابا يمنع من كشف شيء يخالف ما تلقاه تقليدا ، وقد حجب هذا أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب ، وجل الصالحين المتفكرين فى ملكوت السموات والأراضين ، وقد يمنع الكشف جهل بالجهة التى يقع منها العثور على المطلوب[٣] .

طريقة الكشف عند الصوفية :

هذه هى عوائق الكشف الصوفى ، فإذا اتقينا شرها ، أمكننا أن نبلغ مرتبة العرفان التى يبلغها الأولياء ، لأن الأصل فى الولى أنه الواصل إلى مرتبة العرفان ، عن الطريق الموصلة إلى سبيل تلك المرتبة فى عرف الصوفية ، والواصل إليها تنكشف

---

(١) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر السالف ص ٨

(٣) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١١ و ١٢

له الحجب ، ويشهد من علم الله ما لا يشهد سواه[١] وهذا أمر ميسور ، لأن النفس البشرية بطبيعتها مهيأة لقبول الإلهام ، كما هى معدة لقبول الوحى ، وتكون أعظم استعدادا لذلك كلما كانت أصفى جوهرا وأذكى فهما ، فبهذا تكون أخلاق المرء وسجاياه ، أدنى إلى أخلاق الكرام وأشبه ، ويكون مذهبه واعتقاده أشد تحققا باعتقاد الأنبياء ومذهب الحكماء ، وتكون أعماله وسيرته أشد شبها بأفعال الملائكة وسيرتها ، بهذا يسهل فهم النفس لوحى الأنبياء وإلهام الملائكة . ولما كان هذا كله يتفاوت قوة وضعفا ، فقد تفاوتت النفوس بين الأنبياء والصديقين والمؤمنين الأبرار ، وهكذا تتفاوت النفوس فى مراتب النبل ، وبالتالى فى الاستعداد لقبول الوحى والإلهام ، والاطلاع على خفايا الغيب المحجب ، وطريق ذلك أن يصلح المرء ما فسد من أخلاقه فى صباه ، وأن يلتزم السلوك العادل فى تصرفاته ، ثم ينظر فى العلوم الحسية حتى يحسنها ، ثم فى الأمور العقلية حتى يجيدها ، ويستغلها فى طرد الفاسد من آرائه ، بهذا يرقى إلى العوالم السمائية ، فما يمنع النفس عن الارتقاء إلى ملكوت السماء ، إلا نوازع الجسد وتعلق النفس به ، واستعباد شهواته لها[٢] فإن المرء الذى يدين بطاعة الله علما وعملا ، متى فاضت نفسه ، نجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتفعت إلى عالم الأفلاك ، وأضحت ملكا بالفعل ، والملائكة لا يسلمون إلا على أبناء جنسهم ، ولا يخاطبون إلا من شاكلهم ، شأنهم فى هذا شأن الإنسان الذى لا يتبادل التحية مع حيوان أو جماد . وإذا كان الله يذكر

---

(١) القشيرى فى رسالته ومصطفى باشا عبد الرازق فى تعليقه على مقال التصوف للأستاذ ماسينيون بدائرة المعارف الاسلامية — وقارن مختلف معانى الولى ، فى مادة Wali للبارون « كارادى فو » Carra de Vaux فى دائرة المعارف الاسلامية

(٢) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٧١ — ١٧٤

سلام الملائكة على أهل الجنة ، فإن ذلك على سبيل التكريم لهم ، ونفوس المؤمنين العارفين بالله الزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة ونعيمها ، ليست إلا ملائكة بالقوة إن فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل « تحن إلى مخلفيها من الأولاد وقراباتها وتلامذتها ، وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم » وبذلك يكون الاتصال بين الملائكة وكرام النفوس ، وبهذا ينكشف الغيب المحجب[1] .

ولكن لندع الآن الصوفية أنفسهم يتحدثون بلغتهم ، وهم وإن اختلفت وجهات نظرهم فى بعض الاتجاهات ، متفقون فى تصوير الفكرة ، ولعل أظهر مدارسهم فى هذا الصدد ، مدرسة التصوف السنى التى أسسها الغزالى المتوفى سنة ١١١١ م ، ثم المدرسة الإشراقية التى أنشأها السهروردى المتوفى سنة ١١٩١ م ، فلنعرض موقف المدرستين كما يتمثل فى زعيم كل منهما :

الكشف عند أهل التصوف السنى :

بدأ التصوف الإسلامى عمليا ، يتمثل فى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا ... إلى آخر مايقوله ابن خلدون ، ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، وتسللت إليه الأنظار الفلسفية فى المعرفة والوجود ، ولكن أهل السنة قد تنكروا لهذا النوع من التصوف الفلسفى ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجامحة ، وتصدى الأشاعرة لإنكار هذا الجموح ، وانتصر لحملتهم « الغزالى » حجة الإسلام ، وإن أبقى على التصوف الذى يساير التعاليم الدينية ، ويتمشى مع روح السنة ، وبهذا آثر العمل على النظر ، وغلب التعبد على التأمل ، ورجح الاهتمام

---

(١) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٦٤ ــ ١٦٥ ، ١٦٧

بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والحرمان ونحوه[١] ، وجعل الايمان ـ لا التفلسف ـ طريقاً إلى الله ، ورأى أن القلب لا العقل هو المدرك للحقيقة ، وهاجم علماء الكلام والفلاسفة معا ، وإذا كان قد قرر قيام الحدس والفيض والإلهام أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مراراً بأن هذا لايجيء باتحاد أو حلول أو نحوه ، إذ فرق بين العلم الذى يحصله العلماء والحكماء بالتعلم والاستدلال ، وبين العلم الذى يرجم على قلب النبى أو الولى دون نظر أو تعلم ، ورأى أن الطريقة التى تنكشف بها الحجب عن أعين القلوب ، ليتجلى ماهو مسطور فى اللوح المحفوظ ، هى التعبد وليست التأمل ، وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف ، بل بكشف إلهى فى أسرع وقت ، وأن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، ولهذا لم يحرصوا على دراسة العلم ، واستيعاب ماصنفه المصنفون ، بل اعتبروا الطريق قائما فى تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله ، وقد انكشف الأمر للأنبياء والأولياء ، وفاض النور على صدورهم ، لا بالتعلم والدراسة وتأليف الكتب ، بل بالزهد فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها[٢] فان اكتساب العلم اللدنى يكون بارتفاع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح ، فإذا كان القلب فارغا من علائق الحواس طالع جواهر الملكوت[٣] ، والطاقة التى يطل منها المرء على عالم الملكوت ، قد تنفتح إبان النوم فى رؤيا صادقة ،

---

(١) انظر كتابنا « الشعرانى ـ إمام التصوف فى عصره » ص ٧ ـ ٨ و ١٠٧ ـ ١٠٨ (طبعة أولى ٩٤٥)

(٢) الغزالى : الإحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٥ والإحياء ج ٤ ص ٤٣٩

وقد تنفتح أثناء اليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة ، وتجرد من الشهوات وقبيح الأخلاق ، واعتزل الناس وعطل طرق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه ، وجعل القلب فى مناسبة عالم الملكوت ، وقال بقلبه لا بلسانه : الله الله الله مواظباً على هذا ، عندئذ تنمحى الكلمة بحروفها ويبقى معناها مجردا فى قلبه ، حاضراً فيه كأنه ملازم له لا يفارقه ، وعندئذ يتعرض لنفحات رحمة الله ، فلا يبقى بعد هذا إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة بهذه الطريق ، كما فتحها على أنبيائه وأوليائه ، وعندئذ تلمع لوامع الحق فى قلبه ، وتنفتح الطاقة ويبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وينكشف له ملكوت السموات والأراضين ، وتشهد بهذا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وهذا هو طريق الصوفية ، وهو درجة قد اختصرت من طريق النبوة ، وهى لا تنفع بالتعليم ، بل بالذوق وحده ... وهكذا ترجع الطريق إلى تطهير محض وتصفية وخلاء ثم استعداد وانتظار[١] .

والواصلون إلى مرتبة العلم اللدنى فى غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعليم ، فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيراً ، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلا[٢] .

وبهذا يكون الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وعلوم العلماء والحكماء ، أن الأولى تجىء من داخل القلب ، من الباب الذى ينفتح إلى عالم الملكوت ، أما علم الحكمة فيجىء من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك ... ويمضى الغزالى فى تأييد هذا الاتجاه ، مدللا على صحة رأيه بشواهد يستقيها من الشرع[٣] ...

---

(١) الغزالى : من نصوص له فى كيمياء السعادة ص ١٦ و ١٧ والإحياء ج ٣ ص ١٦ و ١٧

(٢) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٥

(٣) الاحياء ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

والرأى عنده أن التعلم بغير معلم ممكن لا محالة ، فإن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة خال ساذج ، لا خبر معه من عوالم الله ، ووسيلة إدراكها هى الحواس[١] ، والعلم اليقينى لا يدرك بهذه الأدوات ، ويستعرض الغزالى العلم اليقينى الذى ينبغى طلبه ووسائل إدراكه ، ومدى الاطمئنان إلى قدرة وسائل الإدراك على كشف الحقائق ، حتى إذا انتهى إلى الشك فى الحواس ثم فى العقل ، قال إن من الممكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحال ، تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة هى مايدعى الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم ، أحوالا لا توافق المعقولات ـ وهكذا غمر الشك الغزالى حتى تحرر منه « لا بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة » وهذا النور ينبجس من النور الإلهى فى بعض الأحايين ، ولهذا وجب الترصد له والجد فى طلبه ، فليس من المجدى أن تحاول إدراك الأوليات العقلية والبدهيات ، بنظم كلام وترتيب أدلة ، فهى حاضرة فى الذهن والحاضر إذا طُلب فُقد » وعلى هذا فإن إدراكها يكون بالحدس الباطنى ، أو بالنور الذى يقذفه الله فى الصدور[٢] .

وقد كان الغزالى بهذه الدعوة الجريئة ، أكبر من مهدوا للاتجاه الذى عرف

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ص ١٣٦ ـ ١٣٧ (الطبعة الثانية لمكتب النشر العربى بدمشق) حيث يستعرض الحواس بحسب خلقها فى الطفل محددا وظيفة كل منها على حدة .

(٢) الغزالى ، المنقذ من الضلال ص ٦٥ ـ ٧٥

بعده عند الصوفية فى عصور الاضمحلال ، وهو الذى يجهر أصحابه بمناهضة التعلم ومقاومة النظر العقلى ، ويصرحون بأن الأمية تجعل صاحبها أكثر استعداداً لتلقى الإلهام ، وأن العلم المكتسب يعوق التهيؤ لاستقبال العلم اللدنى .. !

بل إنا نرى عند بعض من أعقبوه من الصوفية المتفلسفين نصوصاً تشبه النصوص التى أسلفناها عن الغزالى ، فابن عربى يصرح بأن العلم الذى لا يحصل إلا عن عمل وتقوى وسلوك ، هو المعرفة اليقينية الحقة ، لأنه يكون عن كشف محقق لا تدخله الشبه ، أما العلم الذى يحصل عن نظر فكرى ، فإنه لا يسلم من الشبه أبداً[1] بل لقد كان ابن عربى يأخذ على الفقهاء فى عصره ، أنهم يشتغلون بالجدال « ينوون بذلك تلقيح خواطرهم »[2] وما نظن أن هذه النغمة كانت قبل الغزالى واضحة سافرة على هذا النحو .

ومن هذا نرى أن الغزالى قد أقر الإلهام والحدس أداة للعلم اللدنى ، ورفض أن يجعى هذا عن تعلم واكتساب ، أو باتصال العقل المستفاد بالعقل الفعال كما ذهب الفلاسفة أو باتحاد الناسوت باللاهوت كما ذهب بعض الصوفية .

الكشف عند أهل التصوف الإشراقى :

يعبر السهروردى عن مذهبهم فيقول « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت (أى عالم المجردات والمعقولات والكليات ، وهو عالم الغيب أو العالم العلوى أو السماوى) وأن ما يشغلها عن عالمها ، هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس

---

(١) ابن عربى : الفتوحات ص ٣٩٣

(٢) المصدر السالف ص ٥٥٩ :

بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس ، وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منهم المغيبات فى نومها ويقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش ...[1] وهكذا يتصل المرء بالنفوس الفلكية ويدرك شتى المعلومات والمعارف فى عالم الغيب ، وتلك هى غاية التصوف التى يسعى إلى تحقيقها الإشراقيون ، وهى شبيهة بغاية الفيلسوف فى السعادة التى تتحقق عند أهل الفلسفة الإسلامية ، من الاتصال بالعقل الفعال كما أشرنا من قبل .

موقف الفقهاء من الصوفية :

هذه النتيجة التى انتهى إليها الصوفية فى تقرير الكشف عن عالم الغيب ، لا يرفض التسليم بها خصومهم من الفقهاء ، ولقد صدق الأستاذ ماسينيون حين قال إن أهل السنة لم يقولوا فى الواقع بحروق المعتدلين من الصوفية ، فقد دأب أهل السنة على الاهتداء فى معاملاتهم وعباداتهم برسائل معروفة لأهل التصوف ، وكان فقهاؤهم الذين اشتدوا فى الحط من شأن المتصوفة ، أمثال ابن الجوزى (+٥٩٧هـ ـ ١٢٠٠ م) وابن تيمية (+ ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٧ م) وابن القيم (+ ٧٥١ هـ ١٣٥٦ م) يقدرون الغزالى ويعتبرونه حجة فى مسائل الأخلاق ، وقد صب المتأخرون من فقهاء أهل السنة غضبهم على مريدى ابن العربى لقولهم بالوحـــدة[2] ولنشر إلى موقف

---

(١) السهروردى ، هياكل النور ص ٤٣ و ٤٤

(٢) ماسينيون : مادة تصوف فى دائرة المعارف الاسلامية ، وإن كان ابن تيمية قد هاجم الغزالى من جراء آرائه الفلسفية ، المبثة فى « المنقذ » و « الأحياء » الذى تضمن الكثير من الأحاديث النبوية التى لا يوثق فيها ـ وحمل عليه من جراء خلطه التصوف بالفلسفة وانظر مادة ابن تيمية فى دائرة المعارف الاسلامية .

ابن تيمية بالذات ، فهو حنبلي متطرف من أهل الظاهر فيما لاحظ جولد تسيهر في كتابه عن عقيدة الإسلام وشريعته ، وقد فقه الحديث حتى قيل إن الحديث الذي لا يسلم بصحته ابن تيمية لا يعتبر صحيحاً ، واشتدت حملاته على المتطرفين من الصوفية ، وأفتى بهرطقة القائلين بنظرية الاتحاد ، وكان مصيره السجن ، وكانت آراؤه أساساً للوهابية والسنوسية بعد ، وكان يحمل على ابن عربي ومن سلك مسلكه في فهم الولاية ، وإيثارها على النبوة[١] ، فهو يشرح معنى الوحي في رسالة له ، ثم يعقب قائلا : والوحي بالمعنى السالف للمؤمنين جميعاً ، ثم يستشهد بالآيات القرآنية على صحة ما يقول[٢] ، وليس في هذا الموقف مثار لدهشة ، إذ كان ابن تيمية يرى أن صريح العقل لا يخالف صريح النقل بحال ، ووضع لتأييد هذا الرأي كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول[٣] . ويلوح لنا — مع هذا كله — أنه كان يسلم بالإلهام الصحيح عند بعض أهل الذوق والمكاشفة ، ويستشهد على صحة تسليمه ، بالموثوق به من الأحاديث النبوية ، حتى إذا فرغ من استشهاداته عقب قائلا (والمقصود أن هذا الجنس واقع)[٤] ولكن معالي أستاذنا مصطفى باشا

---

(١) ابن تيمية : رسالة الفرقان ص ١٤٧ و ٢٠ و ٢١ وهو يقول في رسالته عن حقيقة مذهب الاتحاديين ، إن مقالة ابن عربي مع كونها كفراً ، فان صاحبها أقرب أصحاب الاتحاد ونحوه إلى الاسلام ، لما يوجد في كلامها من الكلام الجيد كثيراً ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه . انظر ص ١٢٢ من فيلسوف العرب .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٣) معالي مصطفى باشا عبد الرازق : « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » ص ١٢٠ وهو يستند إلى استشهادين رائعين ، أما الكتاب المشار إليه في صلب الكلام فمطبوع على هامش منهاج السنة النبوية (مطبعة بولاق ١٣٢١ هـ)

(٤) رسالة الفرقان ص ٥١ — ٥٤

عبد الرازق ، يقول فى بحثه الشائق عن ابن تيمية « وليس يرى للمعرفة طريقا غير الوحى والعقل ، أما الكشف الصوفى فهو ينكره ويرده بالدليل العقلى وبالدليل السمعى معا »[1] .

وهكذا يسلم أن خصوم الصوفية من أهل السنة الحنابلة — فيما يلوح — بإمكان الكشف الصوفى الذى ييسر لأهله معرفة الغيب المحجب .

أشباه الصوفية من مدركى الغيب

إذا كان الاطلاع على عالم الغيب ، يقع بعد انصراف المزاج عن موارد الحس ، وتجرد النفس من علائق البدن ، والانشغال عن التفكير العقلى ، فقد يتوافر هذا دون سلوك هذه الطريق الوعرة ، التى يرسمها أهل التصوف لبلوغ هذه الغاية ، ومن أجل هذا كان لا بد لهم — تمشياً مع منطقهم — من التسليم باطلاع كل من يتوافر له هذه الصفات على عالم الغيب ، فقالوا — أو قال بعضهم — بقدرة صنف من المجانين والمتوهين من مريدى الصوفية والمرضى والقتلى على الكشف الغيبى ، وقد قرر هذا رجل من أنضج مفكرى الإسلام عقلا وأعمقهم تفكيراً — هو ابن خلدون — وسبقه إلى بعض ما قال رجل عرف بالاطلاع الواسع والتفكير الغلاب، هو الغزالى الذى ينقل هذا الرأى عن الفلاسفة .

إدراك الغيب عند المجانين والمصروعين :

تكون نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم فى أغلب الأحوال،

---

(١) كتاب معالم السالف ص ١٢١ (طبعة الجمعية الفلسفية ١٩٤٥)

ولضعف الروح الحيوانى فيها ، وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفة إلى التفكير فى نقصها[١] أو يغلب على مزاج هؤلاء المجانين ومن يشبههم من المصروعين ، اليُبْس والحرارة حتى يصرفه بغلبة السواد عن موارد الحواس ، فيكون صاحبه مع فتح العينين كالمبهوت الغائب الغافل عما يرى ويسمع ، وذلك لضعف خروج الروح إلى الظاهر ، ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شيء من الغيب ، فيجرى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول[٢] ، ولكن ربما زاحم النفس على التعلق بالبدن روحانية أخرى تتشبث به ، وتضعف هذه عن ما نعتها فينشأ عن هذا ما نراه من تخبط ، ويختلط الحق بالباطل ، لأن اتصالهم بعالم نفسه لا يتم ، وإن فقدوا الحس بغير الاستعانة بالتصورات الأجنبية التى يحيك الخيال خيوطها[٣] .

إدراك الغيب عند المتولهين من مريدى الصوفية :

وأولئك أشبه بالمجانين منهم بالعقلاء ، ومع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وقد شهد بهذا من فهم عنهم من أهل الذوق ، ولا تكليف عليهم فليسوا مقيدين بشيء ، ومن أجل هذا أنكر بعض الفقهاء أنهم على شيء من المقامات ، لأن الولاية فى عرفهم لا تجيء بغير عبادة ، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء بغير عبادة أو نحوها ، ومن أجل هذا وقعت لهم العجائب فى مجال الإخبار عن الغيب . . !

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٣

(٢) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٢ و ٣١٣

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٤

والفرق بين هؤلاء البهاليل المعتوهين وبين المجانين حقا ، أنهم لم يفقدوا نفوسهم الناطقة ، ولكنهم فقدوا العقل الذى يناط بالتكاليف ، ويعرف المرء به وجوه معاشه واستقامة منزله ، ومن فقد هذا فليس بفاقد نفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته ، وأظهر ما يميزهم من المجانين أنهم لا يكفون عن الذكر والعبادة ، وإن وقع منهم هذا على غير وجهه الشرعى لسقوط التكاليف عنهم ، ويختلفون عن البله منذ نشأتهم ، ولا يعرض لهم الجنون فى مراحل العمر لعوارض بدنية طبيعية ، وهم يكثرون من التصرف فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لا يتوقفون على إذن لسقوط التكاليف عنهم ، وليس المجانين على شىء من هذا كله — فيما يرى ابن خلدون[1] .

ومن أجل هـذا يقول « لين » Lane فى معرض حديثه عن المصريين ، إن المعتوه idiot أو الأبله fool يعتبر فى عرف العامة كائنا عقله فى السماء ، وجزؤه الكثيف — جسمه — يعيش بين عامة الناس ، ومن ثم يعتبر حبيب الله — أى ولياً[2] .

إدراك الغيب عند المرضى والمشرفين على الموت :

يرى فريق من أهل البحث ، أن بعض معقولات المصابين بأمراض خاصة ، تتمثل فى خيالهم ، وتصل إلى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى مجال الحس[3] ، ويلاحظ ابن سينا فى إشاراته أن بعض المصروعين والمرضى ، يرى صوراً لا تتصل بإحساساتهم الخارجة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ و ٩٧

(2) E. w. Lane, Modern Egyptians p. 234.

(٣) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١١٢ لعله يقصد ما يعرف فى علم النفس بالأوهام المجسمة Hallucinations

فى كثير ولا قليل ، ورد هذا إلى المخيلة باعتبارها مصدر الصور الباطنة[١] . وثبت فيما يقولون بتجارب المسادين من الأطباء ، أن بعض هؤلاء المرضى يخبر بالمغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق ، والحوادث فى هذا الصدد تثير العجب[٢] .

فأما القتلى فإنهم حين تفارقهم رؤوسهم وأبدانهم ، يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب ، ويقال إن بعض الجبابرة الظلمة ، قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلامهم إبان قتلهم ، عواقب أمورهم فى أنفسهم ، فأنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة ، وقيل إن الآدمى إذا أقام فى دن مملوء بدهن السمسم أربعين يوما ، يغذّى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى إلا عروق رأسه ، وخرج من ذلك الدهن وجف عليه الهواء ، فإنه يجيب عن كل ما يسأل عنه من عواقب الأمور خاصة وعامة ، ورغم أن هذا من أفعال منا كير السحرة ، إلا أنه يكشف لنا عن عجائب العالم الإنسانى ، ومن ذلك ما نراه عند من يحاولون بالمجاهدة أن يموتوا موتاً صناعياً ، فيعملون على قتل جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التى تلوثت بها النفس ، ثم تغذيتها لتزداد قوة ، ويقع هذا بجمع الفكر وكثرة الجوع ، والمعروف على سبيل اليقين أن الموت متى نزل بالبدن ، ذهب الحس وزال حجابه ، واطلعت النفس على ذاتها وعالمها ، فهم لهذا يحاولون أن يحصلوا على هذا بالاكتساب ، ليقع قبل الموت ما يقع بعده ، وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب[٣] وليس عجيبا أن يؤدى الموت إلى كشف الغيب ، فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ، فلا يرى

---

(١) ابن سينا فى إشاراته ولعله نقلها عن أرسطو — أنظر الفقرة الثانية والخمسين من الكتاب الأول فى العلم بالغيب لمؤلفه شيشرون —

(٢) قارن رشيد رضا فى هامش له على رسالة التوحيد ص ١١٣

(٣) ابن خلدون فى المقدمة ص ٩٥

بعينه الظاهرة ، بل يرى بالعين التى خلقت فى كل قلب، وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات[١] ، وبين القلب واللوح المحفوظ الذى نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة ، يقوم حجاب قد ينكشف فى المنام أو اليقظة ، ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب ، إنما يكون بالموت[٢] ، فالقلب إن مات بموت صاحبه ، لم يبق ثمة خيال ولا حواس ، فيصير بغير وهم ولا خيال ، فتنفتح الطاقة التى يطل منها المرء على عالم الملكوت[٣] .

منابع الكشف الصوفى فى التراث القديم[٤] :

اختلف الذين حاولوا تأريخ التصوف الإسلامى ـ مستشرقين وشرقيين ـ فى فى المنابع التى صدر عنها[٥] ، وحسبنا أن نتحدث عن المنابع التى صدر عنها التصوف فى مرحلة من مراحل تاريخه ، هى التى كان فيها أداة إلى الكشف الغيبى :

يستعرض معالى مصطفى باشا عبد الرازق أطوار التصوف ومراحله فيقول : إن أولها أنه كان طريقا من طرق العبادة يعبر عن معنى الكمال الدينى بالتمسك بالشرع والزهد فى الدنيا ، عند ما أخذ الناس فى مخالطة الزخارف الدنيوية ، وكان يقابل علم الفقه الذى يتناول ظواهر العبادات ورسومها ، وهذا الدور لايعنينا فى هذا الفصل ، ولما نشأ البحث فى العقائد والتماس الإيمان من طريق النظر أو النفوس المقدسة ، وتوجهت هم المسلمين إلى التماس المعرفة على أساليب المتكلمين ، أصبح الكمال الدينى

---

(١) الغزالى ، الاحياء ج ٤ ص ٤٢٨ (٢) الغزالى ، الاحياء ج ٣ ص ١٦

(٣) الغزالى ، كيمياء السعادة ص ١٥

(٤) كان فى نيتنا أن نسوق أمثلة للكشف الغيبى عند الصوفية والمجانين والمصروعين ونحوهم، نعقب عليها بتحليلها وردها إلى عللها الطبية ، ولكن بدا لنا أن حجم الكتاب المقرر ينتظر أن يضيق عنها ، فليطلع القارئ على هذه النماذج فى الطبقات الكبرى للشعرانى (ج ١ ص ١٥٦ و ج ٢ ص ١٣ و ٧٦ و ١٢٠ و ١٦٠ و ١٦١) . وليحاول تحليلها ..!

(٥) استعرض زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمى وجهات النظر المختلفة فى هذه المنابع ، فى كتابه الشائق « الحياة الروحية فى الإسلام » مستنداً إلى مصادر قيمة .

هو التماس الإيمان والمعرفة من طريق التصفية والمكاشفة ، وأصبح التصوف عبارة عن بيان هذه الطريقة وسلوكها ، وأصبح بذلك طريقا للمعرفة يقابل طريق أرباب النظر من المتكلمين ، واعتبر علم المكاشفة ، وهو نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتذكيته من صفاته المذمومة ، وتنكشف بذلك النور أمور كثيرة ، ثم شاعت بعد ذلك أقاويل الفلاسفة والمتكلمين فى الصانع وصدور الموجودات عنه ونحو ذلك (فتكلم الصوفية فى هذا كله على منهجهم الذى لايعتمد على نظر ولا نص ولا معرفة إلا من ذاق ما ذاقوا ، وهم يرون ما تكلموا به حق اليقين الذى لايقبل شكا ولا يلحقه بطلان ، ولا يدركه إلا من بلغ رتبة العرفان) ، ويقول معالى الباشا إنه لاينكر أن التصوف فى هذا الدور لم يخل من تأثر ببعض ما وصل إلى المسلمين من معارف الأمم القديمة ، ولكنه مع ذلك لا يزال يجد الصبغة الإسلامية غالبة فى هذا العلم الوليد ، ولا يسلم برأى جولد تسيهر فى ضرورة تقدير النصيب الهندى الذى ساهم فى تكوين هذه الطريقة الدينية المتولدة من الأفلاطونية الجديدة[1] .

وهذا رأى سليم فيما يلوح ، أما المؤثرات القديمة الغريبة التى يشير إليها معالى الباشا فربما كانت ـ فيما نرى ـ الأفلاطونية الجديدة والغنوصية والرواقية والفيثاغورية ونحوها ، وقد يستلزم الحديث عن هذا كله ، الإشارة إلى تأثر اليونان والرومان بقدماء الشرقيين فى هذا الصدد ، بل ينبغى أن نبدأ ببيان موقف الدين الإسلامى ، فإن التصوف إذا لم يتصل بالعناصر الدخيلة ، وبقى فى نطاق الزهد الإسلامى ، لكان ينتظر أن يتطور ويتحول ، وإن كان تطوره سيكون على غير الوجه الذى نراه الآن بعد اتصاله بالعناصر الدخيلة فيما يقول نيكلسون[2] .

(١) معالى الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق فى تعليقة على مادة تصوف بالنسخة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .

(2) Nickolson : Mystics of Islam p. 20 and A. Litt. Hist of the Arabs p. 392.

موقف الدين الإسلامي من هذه الآراء :

ذهب الصوفية وأشياعهم إلى أن هـذه الأفكار قد وردت تصريحا أو تلميحا فى آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، ومن أجل هـذا ـ فيما يلوح ـ قال ابن خلدون : إن متأخرى الصوفية الذين تكلموا فى الكشف وما وراء الحس ، وذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة ، يتجهون إلى الإسلام ويستقون منه مبادئهم ، وقد خالطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الذين يدينون بالحلول وتأليه الأئمة ، وظهر فى كلام الصوفيـة القطب ومعناه رأس العارفين ، وزعموا ألا يبلغ أحد مرتبته فى المعرفة حتى يقبضه الله ويورث مقامه لآخر من أهل العرفان[1] . ويقول الغزالى إن الله يقول وعلمناه من لدنا علما ، مع أن الله مصدر كل علم ، إلا أن بعض العلوم يجىء اكتسابا بالتعلم، وليست هذه علوما لدنية ، لأن العلم اللدنى هو الذى يتفتح فى سر القلب من غير سبب مألوف من الخارج ، إنما يجىء بالتقوى والعمل الصالح ، قال تعالى يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ـ قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ويخرج من الشبهات ، ولهذا كان الرسول يكثر فى دعائه من سؤال النور ، فيقول اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل فى قلبى نورا ... وصرح القرآن بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلم ، وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » من الإشكالات والشبه ، « ويرزقه من حيث لايحتسب » أى يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة ، وقال الرسول من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٩٤

آتاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ، وهكذا يروى أهل الباطن[١] الكثير من الآيات والأحاديث التى يثبتون بها أن الله مصدر وحى الأولياء وأهل الكشف ، وأن العمل الصالح وتقوى الله ، هى التى تهيئ النفس الإنسانية إلى الوحى والإلهام ، وأن مصادر هذا كله موجودة فى القرآن والحديث ، وإذا جاز أن يقال إن الغزالى ليس محدّثا ولا يحسن رواية الحديث ، جاز أن يقال إن الحنابلة من أهل الظاهر يسلمون بالكشف الصحيح ، ويؤيدونه بآيات الله وأحاديث رسوله ، وقد عرفنا هذا من بعض ما أسلفناه ، ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن تيمية عن صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى أنه قال : ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ... الخ ويروى عن الترمذى أن النبى قال « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ويورد من آيات القرآن ما يشهد بصحة هذا الرأى[٢] وبهذا يصبح الإسلام عند الصوفية وأهل السنة معا ، المصدر الذى استقى منه التصوف القول بكشف المؤمن للغيب ، عن إلهام إلهى لا دخل فيه لتعلم أو تجربة ، وقد اعتمد أهل التصوف على هذا ، وبالغوا فى تصوير التقوى والعمل الصالح حتى ألغوا الدنيا وأبقوا على الحياة الأخرى وحدها ، ولهذا ما يبرره فى الإسلام نفسه ، فالدين وإن كان قد جمع بين الدنيا والآخرة ، إلا أنه آثر الأخرى فى الكثير من آياته .

الكشف الصوفى فى تراث اليونان والرومان : موقف الرواقية :

يعبر « كونتوس » الرواقى عن الآراء السالفة فيقول ، إن فى النفس الإنسانية

---

(١) الغزالى ، فى الاحياء جـ ٣ ص ٢٠ و ٢٢ وقد سجلنا هذه الأحاديث مؤرخين لا مؤيدين .

(٢) ابن تيمية : رسالة المعوذتين ص ١٩٩

ملكة ملازمة لها ، تمكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءا مكونا لها ، فإذا نمت هذه الملكة على غير قياس ، سميت جنة أو إلهاما إلهيا[1] ، ويكرر هذا المعنى قائلا ، إن الطبيعة البشرية تبين عن مقدرتها على التنبؤ بالغيب ، عند ما تتخلص من علائق الجسد ، وهذا ما يقع فى الرؤيا ، أو فى الأوقات التى يعترى فيها النفسَ جذبٌ أو إلهام إلهى ، وليس فى ذلك من بدع ، فإن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضا ويدرك كل منها ما يفكر فيه غيره ، دون الاستعانة بالحواس من عين أو أذن أو لسان أو نحوه ، والناس لا يساورهم الشك فى أن الآلهة على علم بكل تصرفاتهم ، ولو كانت فى خفاء ، فكذلك الحال فى نفوس البشر ، عند ما تدرك بفطرتها عالم الغيب حين تتجرد من علائق الجسد وتتخلص من شهواته ، دون أن تستعين بالنظر أو السمع أو نحوه من أدوات المعرفة الحسية[2] .

وبهذا يقرر الرواقية مايقوله إخوان الصفا وغيرهم من مفكرى الإسلام الذين قالوا بوجود قوة تكمن فى باطن النفس البشرية ، تمكنها من كشف الغيب عند ما تتجرد النفس من علائق الجسم وشهواته ، وهذا نفسه ما يؤكده « كونتوس » حينما يقول إن التكهن الطبيعى يعزى إلى الطبيعة الإلهية ، وأن النفس أثناء اليقظة تستبد بها مطالب الحياة اليومية ، فيمنعها هذا من الاتصال بالنفوس الإلهية ، وأن من المحقق أن النفس لا تستطيع هذا النوع من التكهن ، إلا إذا كانت من الحرية بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع فى حالات الجذب أو الرؤيا الصادقة ، ولا غرابة فى هذا ما دمنا نسلم بوجود الآلهة وهيمنتهم على الكون ، بما لهم من سبق النظر بالمستقبل ، وتدبيرهم لشئون الناس جماعات وأفرادا[3] .

---

(١) شيشرون : العلم بالغيب فى الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول .
(٢) المصدر السالف : فى الفقرة السابعة والخمسين من الكتاب الأول .
(٣) المصدر نفسه فى الفقرات من ٤٩ — ٥١

الغنوصية والأفلاطونية الجديدة وأثرها فى الكشف الصوفى :

وقد امتزجت الرواقية والفيثاغورية والأفلاطونية بعناصر فارسية وسريانية ونحوها ، وتألف من هـذا كله مزاج تشبع بروح صوفية تجلت أول الأمر فى مذهب الغنوصية الذى عاش فى القرون الأربعة السابقة للميلاد ، وقصد أصحابه إلى إدراك كنه الأسرار الربانية عن طريق الكشف الصوفى ، لا بالبرهان والاستدلال العقلى ، ثم شاعت هـذه النزعات فى التصوف الإسلامى الذى حاربه أهل السنة أول الأمر ، ثم سلموا به وأقبلوا عليـه بعد أن روج له الغزالى ، وتأثر التصور الإسلامى للرسول بالروح الغنوصية ، ولوحظ أن الأرواح القدسية التى كانت فى الهيلينية ، قد ظهر ما يقابلها فى الإسلام بوجود الأولياء إلى حد أن أضحى محمد ، وهو نموذجهم الأعلى ، هو العقل الموجود منذ الأزل والرحيم المخلص القدير ، وهكذا تأثر التصوف وفرقه فى هـذه النزعات الهيلينية إلى جانب تأثره بالأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية المحدثة فيما يقول الأستاذ بيكر فى محاضرته عن تراث الأوائل فى الشرق والغرب ، وكما يظهر من مقال « جولدتسيهر » عن العناصر الأفلاطونيـة المحدثة والغنوصية فى الحديث النبوى[1] .

أما فـكرة الجذب التى شاعت فى كتب التصوف الإسلامى ، فقد كانت معروفة فى الأفلاطونية الجديدة ، وقد فطن « سانت هيلير » إلى ردها إلى أرسطو ، لا إلى الأفلاطونية ـ إذ قرر بأن السعادة تـكون فى شواغل العقل (التأمل) ومشاهدة الذكاء ، وذلك أن أرسطو يقول إن الغرض الأسمى للحياة ، هو فاعلية النفس بالمطابقة للفضيلة ، وهى فضيلة تفـكُّر ، وقال سانت هيلير إن الاسكندريين قد ذهبوا

---

(١) قارن هذا فى ترجمة زميلنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى « تراث اليونان » .

فى هذا المذهب الأرسطاطاليسى إلى نهايته ، فأداهم هـــذا إلى القول بادعاء الولاية وضلالات الغيبوبة[١] .

وفى الحق لقد شاع عنـد الرومان التنبؤ بالغيب أثناء الجذب ، وكانت له آلهة تتولاه ، وكان موضع ثقة عند الناس ، وأشهر هذه الآلهة « بللونا » Bellone التى أشار إلى بعض نبوءاتها المؤرخون من أمثال تبوللوس Tibulius وجوفنال Juvenal ولوكان Lucan ، وكذلك يقال فى الإلهة « ما » Ma والإلهة سيبيل Cybèle ولكن المؤرخين قد أشاروا إلى أن اليونان قد استعاروا عن الشرق القديم الكثير من هذه المعتقدات .

فى التراث الشرقى القديم :

يقال إن الإلهة « ما » قد نقلها جند الرومان من آسيا الصغرى ، حين كانوا يقاتلون فى أرضها تحت إمرة « سلا » ويشهد بهذا بلوتارك فى (حياة سلا) وقد كانت آسيا الصغرى فى أواخر عهد الجمهورية مهداً للحروب ، ويقول بلوتارك إن « سلا » كان قد رأى هذه الإلهة فى حلم وقع له ـ أما الإلهة « سيبيل » أم الآلهة ، فهى أسيوية نقلت بقرار من مجلس الأعيان أثناء حروب هانيبال .. !! وقد قرر المجلس نقلها بعد الاطلاع على ما ورد فى هذه الكتب بشأنها .

ويضاف إلى هـذا أن كهنة هؤلاء الآلهة كانوا يسمون Fanatici أى المجانين أو المجاذيب ، وكانوا يقطعون أنفسهم حتى يسيل الدم من أبدانهم ، ويزعمون أنهم لا يشعرون ولا يدرون ما يفعلون .

---

(١) سانت هيلير فى مقدمته لترجمة الأخلاق لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفى السيد باشا.

أهل الكشف من المجانين والمرضى ومن المبرسم :

أشرنا إلى موقف بعض مفكرى الإسلام من هؤلاء فى قدرتهم على كشف الغيب ، ولم نعثر فى القرآن والحديث على ما يؤيد وجهات نظرهم ، ولكن لهذا الموقف شبيها فى التراث القديم :

فالرواقية يسلمون بقدرة النفس على التنبؤ إبان النوم ، لأنها تكون حية وقوية ، وقالوا إنها تكون أوفر حياة وأعظم قوة عند ما يدركها الموت ، إذ تتجرد من علائق البدن فى هذه الحالة كل التجرد ، وبهذا تعظم قدرتها على التنبؤ بدنوها من الموت ، والذين يعتريهم مرض شديد مهلك ، يرون الموت وهو يوشك أن ينقض عليهم فيما يقول كونتوس[١] ، وقد ذهب أرسطو من قبل إلى القول بأن المصابين بالسوداء ، تقوم فى باطن نفوسهم قوة تمكنهم من التكهن[٢] وقد دلل « بوسيدونيوس » الرواقى على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ ، مستشهداً بقصة رجل من أهل رودس ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئا بموت كل منهم على الترتيب[٣] وأيد « كونتوس » هذا الرأى بقصة رجل تنبأ وهو على كومة الخشب التى سيحرق عليها جثمانه بمصرع الإسكندر العاجل ، وتحققت نبوءته بعد أيام قلائل[٤] ؛ وفى الحق إن الفكرة أعرق فى القدم من الرواقية ، فإن

---

(١) شيشرون ، فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول .

(٢) أرسطو ProbXXX ص ٧١٤ ويلاحظ أن كونتوس لم يسلم برأيه ، ورد هذا إلى النفس السليمة لا الجسم المريض — قارن الفقرة ٣٨ من الكتاب الاول فى شيشرون ، وهذا يخالف رأيه فى الفقرة الثلاثين — السالفة الذكر —

(٣) شيشرون فى الفقرة ٢٩ من الكتاب الأول . وقارن الفقرة الثالثة والعشرين فى الكتاب نفسه .

(٤) المصدر نفسه فى الفقرة الثانية والعشرين .

« ديودورس » الصقلى يقول إن فيثاغورس وغيره من قدماء الطبيميين ، قالوا — اعتقاداً منهم بخلود النفس — إن النفس تدرك المستقبل فى اللحظة التى تنفصل فيها عن الجسد ، ويكرر (سكستوس إمبريكوس) نصا لأرسطو مقرراً أنه يميد مايرويه هومير فى الإلياذه فى هذا الصدد ، وقد روى « هومير » أن « هكتور » كان يقتل « باتروكلوس » فتنبأ الأخير قبل أن تفارق روحه جسده ، بأن قاتله هكتور سيقتله « أشيل »[١] ، ولما تحقق هذا ، تنبأ هكتور قبل أن يلفظ نفسه ، بأن أشيل سيُقتل على يد باريس بمعونة أبولو[٢] ، وقد أيد القول بتنبؤ المشرفين على الموت ، بعض الممتازين من الأطباء ، فإن « أريتيه » Aretée — على سبيل المثال — يقول فى أسباب الأمراض الحادة وأعراضها ، إن الملكات العقلية تحتفظ بنشاطها أثناء الإصابة بالحمى الحادة ، بل ان المرضى يتنبأون خلالها بموت أنفسهم ، ويعلنون المستقبل القريب لمن يحيطون بهم[٣] .

حسبنا هـذا عن تنبؤ المرضى والمشرفين على الموت ، أما المجانين والمصروعون والمتوهون من مريدى الصوفية ، فقد ذكرنا عن حالات الجذب والمس فى المذهب الإسكندرى وعند الرواقية مايكفى فى هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير إلى أن الرواقية مثلا ، قد آمنوا بأن المتوهين من أمثال « كساندرا » يكشفون الغيب الذى لايقوى على كشفه الحكماء من أمثال « بريام » ولا يرون غضاضة فى جهل السر فى هذا ، قانعين بما يرون وما تشهد به تجاربهم[٤] ، وإن كان أتباع الأكاديمية الجديدة من

---

(١) هومير : الألياذة فى الكتاب السادس عشر سطر ٨٥٣ وما بعده .

(٢) المصدر السالف فى الكتاب الثاني والعشرين ص ٣١٠ من طبعة Flammarian

(٣) شارل أبون فى تعليقاته على شيشرون (طبعة جارنييه الفرنسية)

(٤) شيشرون فى الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول

أمثال شيشرون ، لا يسلمون بهذا الرأى الذى يخلع على من فقد العقل البشرى عقلا إلهيا ، ويحاولون أن يثبتوا بأن « سيبيل » كانت تمتاز بالعقل المركز ، لا المخ المهتاج ولا الذهن المخبول[1] ، وحسبنا أن نشير إلى أن رأى الرواقية السالف ، هو الذى تردد صداه عند ابن خلدون وغيره من مفكرى الإسلام — فيما يلوح — وأن هذا الرأى نفسه ، هو الذى عرفه مؤلفو المسيحية فى نظريتهم التى قرروا فيها سمو الجاهل صاحب القلب البسيط الصافى على العالم العاقل ، وعلو الطفل على الرجل الناضج، وتفوق فاقدى الوعى على من يعتقد أنه أوتى الحكمة[2] ، وأليس هذا نفسه هو الرأى الذى ذهب إليه بعض صوفية الإسلام ، حين قالوا بأن التعلم والتجربة ونحوهما ، يعوق الكشف الصوفى ويمنع العلم اللدنى ، على نحو ما أبنا من قبل ..؟

إن عدوى الثقافات وتزاوج الآراء لا سبيل إلى إنكاره ، ولكن التشابه فى الأفكار بين الشعوب ، قد يكون مرده إلى صدور هذه الأفكار جميعها عن مصدر آخر يسبقها ، وكثيراً ما يكون مرجعه إلى طبيعة العقل البشرى ، الذى يستجيب للمؤثرات المتشابهة بأفكار واحدة ...

---

(١) المصدر السالف فى الفقرة ٥٤ من الكتاب الثانى .

(٢) شارل أبون فى تعليقاته المشار إليها سابقا .

— ٣ —

الرؤيا الصادقة[1]

اتفق جمهرة مفكرى الإسلام ، على القول بأن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده ، فى يقظة أو منام أو فيهما معا ، فإن وقع هـذا إبان اليقظة كان مظهراً للنبوة أو الولاية أو نحوها مما عرضنا لبيانه من قبل ، وإن وقع أثناء النوم كان رؤيا صادقة ، فإن لم تكن بوحى من الله لكشف غيب كانت أضغاث أحلام، أدت إليها وسوسة نفس أو غلبة مزاج أو وحى شيطان ، أو نحو هذا مما اعتبروه أضغاثاً لا تقبل تأويلا ولا تستحق اهتماما . . ! وسنهمل أمر هـذه الأضغاث لأنها لا تدخل فى نطاق هذا الكتاب ، وإن كان مفكرو الإسلام قد أجادوا فى تصويرها وتعليلها معاً .

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية :

وقد ذهبوا إلى أن الرؤيا تنبع من نفس المعين الذى تستقى منه النبوة والولاية ،

---

(١) الجزء الأول فى هذا الفصل مقتبس عن بحث لنا جاز امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة ، وكان دراسة مقارنة فى موضوع الأحلام . وقد اضطرنا ضيق المقام الآن إلى الاكتفاء باقتباس فقرات مقتضبة موجزة تشير إلى بعض المذاهب الإسلامية فى هذا الصدد ، وإهمال منابع هذه المذاهب أو ما يقابلها فى التراث اليونانى والشرقى القديم ، كما اضطرنا منهج بحثنا إلى أن نغفل هنا ذكر مذاهب المحدثين من علماء النفس ، وهذا كله مفصل فى بحثنا الأصلى عن الأحلام ، وقد ظهر هذا الشهر (سبتمبر ٩٤٥)

وإن كان حظها منه أقل كمًّا وكيفاً ، فلنعرض رأى ابن خلدون كنموذج لهذا الاتجاه :

يرى ابن خلدون أن للعقل نطاقا يحسن التفكير فى مجاله ، فهو يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ويعتمد على التفكير النظرى . وهذه هى مدارك العلماء ، فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلا ، ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك يقوم فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهيأ للأولياء ، ومع الناس نموذج منه ، يتبدى فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام ، واهتداء النفوس إلى هـــذا العالم العلوى غير عسير ، لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، لتصير ملكا بالفعل فى لمحة من اللمحات ، وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتسابا ، وبهذا تتجاوز مثل هـذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى ، لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية ، مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها ، فإذا ترقت النفس تجاوزت هـذا المجال ، واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الحس ، فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى تتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول ، إلى فضاء المشاهدات الباطنية ، وتلك هى مدارك الأولياء ، أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم .

وقد تترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، لتصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى فى أفقهم ، وتستمع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة ،

وتلك هى نفوس الأنبياء فى حال الوحى التى فطروا عليها ، ولم يظفروا بها صناعة ولا اكتسابا[١] .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية ، وهى أقل فى الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره ، وهـذا الاستعداد السالف يقوم فى النفس ما دامت فى البدن ، وهو على صنفين : صنف خاص يتهيأ للأولياء ، وآخر عام فى البشر جميعا وهو الرؤيا الصادقة ، أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء ، فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة ، وهى أعلى الروحانيات[٢] .

ومثل هـذا نراه عند غير ابن خلدون ، فالغزالى يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة[٣] وبينهما وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم ، يقوم فيهـا إلهام الأولياء ، الذى يعتبر ضعيفا بالإضافة إلى الوحى النبوى . قويا بالقياس إلى وحى الرؤيا[٤] .

مذاهب المفكرين فى تصور الرؤيا وتعليلها :

تتلخص وجهات النظر الإسلامية فى هذا الصدد فى اتجاهين ، أحدهما شرعى صوفى ، وثانيهما فلسفى ميتافيزيقى ، فلنعرض الاتجاهين فى إيجاز :

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٣ ـ ٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩

(٣) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٤) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣

الاتجاه الصوفي :

يرى الإشراقيون من الصوفية أن النفس من عالم المجردات والمعقولات ، فهي تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التي تكون من جنسها ، إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن ، فإذا قويت الفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتتلقى عنها المغيبات في نومها ، كما يقع لها هذا في يقظتها ، كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش [١] ، وهكذا إذا تطهرنا من شواغل البدن ، وتأملنا كبرياء الحق والنور الفائض من لدنه ، وجدنا في أنفسنا بروقا ذات بريق ، وشروقا ذات تشريق ، وشاهدنا أنواراً ، وقضينا أوطاراً [٢] ، وبهذا يتمكن الإنسان من الاتحاد بروح القدس المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال ، وهو أبونا ورب طلسم نوعنا ، ومفيض نفوسنا ومكملها بالكمالات العلمية [٣] .

وذهب القائلون بوحدة الوجود من الصوفية إلى أن وصول العبد إلى خالقه غير ميسور مع وجود الاثنينية ، فلا بد من إفنائها أولا ، عندئذ لا يهبط الوحي من كائن أعلى مستقل عن الإنسان ، وإنما ينبع من نفسه ، فالوجود حقيقة واحدة ، وما نراه من تعدد وكثرة ، مرجعه إلى آثار الحواس والعقل الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ، وقد ظهر الوجود الحق في صورة الكبش في منام إبراهيم الخليل ، كما ظهر في صورة إسحاق ، « وما ناب إلا عن نفسه ، وما فدى منها إلا

---

(١) السهروردى : هياكل النور ص ٤٣ — ٤٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٣٨

بنفسه الطاهرة فى الصورة الكبشية » وعلى هذا فوحى الرؤيا لا يهبط من خارج ، وإنما يصدر بهذا المعنى . من باطن النفس[١] .

ويرى الصوفية إجمالا أن اليقظة التى تتوافر لنا بالحس هى النوم ، وأن الحلم الذى يتهيأ لنا بالفعل هو اليقظة لا محالة ، ولغلبة الحس علينا ظننا الأمر على خلاف وجهه الصحيح ، فإن غلبنا العقل على الحس ، ظهر وجه الحق فى ذلك[٢] فإن المرء إذا ارتقى فى حال المعرفة ، أدرك أنه نائم فى حال اليقظة المعهودة ، وأن الأمر الذى هو فيه ، إنما هو رؤيا إيمانا وكشفا ، وقد ذكر أموراً واقعة فى ظاهر الحس وقال : فاعتبروا ، وقال إن فى ذلك لعبرة — أى جوزوا أو اعبروا مما ظهر لكم من ذلك ، إلى علم ما يبطن فيه ، وفى الحديث النبوى : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ولكن لا يشعرون ، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم[٣] . ولكن الناس يحسبون وهما أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئا من عالم الغيب ، وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة ، مما يدرك عن طريق الحواس[٤] . واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب ، وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا فى اليقظة ، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ، وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ،

---

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٣٦ — ١٣٧ وكتاب الدكتور عفيفى عنه وتعليقه على مقال ابن عربى فى النسخة العربية فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) أبو حيان التوحيدى : المقابسات ص ١٧٩ — ١٨٠

(٣) ابن عربى : الفتوحات ج ٢ ص ٤٩٩ والتهانوى فى كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٤٥١

(٤) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٤

وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول[١] ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها ، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه ، ولكن الرؤيا لا تقع لكل نائم ، ولا تجىء فى كل نوم ، إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة ، فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة ، وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء[٢] ، وهو لا يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات الجسم ، التى تكوّن على عين القلب غشاوة تمنعها من الإبصار ، وهذه الغشاوة منقشعة عن عيون الأنبياء ، ولكن الجلاء البصرى الذى تهيأ لهم ، لا مطمع فيه لإنسان ، وللبشر نوع من المشاهدة الضعيفة يتوافر أثناء النوم ، لأن النوم يمنع الحواس عن العمل[٣] ، ومتى تجردت النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، أضحت روحانية ، وارتفع حجاب الحس ، ويقع لها هـــذا بسبب النوم أحيانا ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود بها إلى مداركها[٤] ، وإذا كان الموت أخا النوم ، زال العجب من انكشاف الحجاب إبانه ، ذلك أن الموت يحول صاحبه من عالم الملك والشهادة ، إلى عالم الغيب والملكوت ، وبهذا يرى بالعين التى خلقها الله فى كل قلب ، ولا يعوقها عن النظر إلا غشاء الشهوات[٥] ، ومن أجل هذا حاول بعض الناس أن يموتوا موتا صناعياً ، بقتل جميع القوى البدنية ، وتغذيتها بالذكر والجوع ونحوه[٦] ، وفى النوم يذهب الحس ويزول حجابه ، على نحو

---

(١) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٩ وكيمياء السعادة ص ١٥

(٢) ابن حزم : ج ٥ ص ١٩

(٣) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٩ و ج ٣ ص ١٦ وكيمياء السعادة ص ١٥ وما بعدها .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ ــ ٩٠

(٥) الغزالى : الأحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٦) ابن خلدون فى مقدمته ص ٩٥

أضعف مما يكون فى الموت ، ولهذا تقع الرؤيا الصادقة إبانه ، ويكون الكشف فيها أقل فى العادة منه عند الموت ـ وهكذا تتمكن النفس من الاتصال بالجواهر الروحانية الشريفة فى حال النوم ، الذى تنصرف فيه النفس عن شغل الحواس[١] .

وأما الملائكة التى تتلقى عنها نفوس المؤمنين هذا العلم أثناء النوم ، فهى نفوس الموتى من أهل التقوى ، فإن هؤلاء إذا التزموا الخلق القويم ، وتفقهوا فى الدين حتى يخرجوا من ظلمات الجهالة ، والتزموا كرم الأخلاق منذ صباهم ، وفكروا فى الدنيا وأحوالها ، حتى انتبهوا من نوم الغفلة والجهالة ، كانت نفوسهم ملائكة بالقوة ، متى فارقتهم أضحت ملائكة بالفعل ، واستقلت بذاتها ، واستغنت عن التعلق بالأجسام ، ونجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتقت إلى عالم الأفلاك ، وعندئذ تأبى الاتصال بغير بنات جنسها من نفوس المؤمنين ـ الملائكة بالقوة ـ وربما نزلت الملائكة إلى نفوس المؤمنين فى منامها ، ووعظتها وذكرتها بالمعاد ، أو وصفت لها ما صارت إليه ، وبشرتها فاستبشرت[٢] . وليس من الممكن أن تكون النفوس ملائكة بالقوة ، مهيأة لقبول الوحى والإلهام ، مستعدة للارتفاع إلى رتبة الملائكة والتخلص من عالم الكون والفساد ، والاتصال بعالم البقاء والدوام ، إلا بصفاء الجوهر وحميد الأخلاق ونحو ذلك[٣] وهكذا يكون مرد العلم فى الرؤيا إلى الملائكة التى تمد به نفوس المؤمنين أثناء النوم ، وهذا التعليل يساير اعتبارها جزءاً من النبوة ، يتهيأ لأهل الإيمان وصفوة المؤمنين .

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩

(٢) إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ وقد ذكروا من آيات القرآن ما يؤيد ما يقولون .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٤ وغيرها

الاتجاه الفلسفى فى تصورها وتعليلها :

ذهب فلاسفة الإسلام إلى أن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، ورفض أهل الكلام التسليم بها واعتبروها من مخترعات الفلاسفة ، حسبنا منها الحس المشترك ، وهو القوة التى ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة[١] ، ويرى الفلاسفة أن هذا الحس المشترك قد يأخذ المدرك فى النوم من صور فى العقل الفعال ، وقد يلبسه صوراً تحتاج إلى التعبير أو يبديه سافراً فيقع كما ظهر[٢] ، بل إن الحس المشترك لا يتلقاه فى عرفهم عن العقل الفعال رأساً ، بل يأخذه عن النفس الناطقة ـ العقل المستفاد ـ التى تأخذه بدورها عن العقل الفعال ، آخر العقول المفارقة ، وفيه ترتسم صور الكائنات جميعها[٣] ، فهو فى هذا يشبه الجواهر الروحانية الشريفة عند الغزالى ، واللوح المحفوظ عند أهل الشرع ، والروح المقدسة عند السهروردى ، أما طريق الاتصال بالعقل الفعال ، فيكون بالتأمل العقلى أو بالمخيلة القوية .

ولسنا الآن بصدد الإسهاب فى بيان آراء الفلاسفة ، وضيق المجال يبرر هذا الإيجاز ، فحسبنا أن نشير إلى الكندى ـ أول فيلسوف إسلامى ـ وهو يرجع الرؤيا إلى النفس ، ويردها إلى القوة المخيلة ، ويريد بها الأداة التى تحصّل صُوَر المرئيات من

---

(١) التهانوى : كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ وابن مسكويه فى الفوز الأصغر ص ٩٧ وما بعدها وقارن ابن خلدون ص ٩٠ وابن رشد ص ٧٨ من الخاص والمحسوس والغزالى فى مقاصد الفلاسفة ص ٣١٣ ـ ٣١٤

(٢) الأيجى جواهر الكلام ص ١٧٣

(٣) التهانوى فى الكشاف ج ١ ص ٦٠١

غير مادة ـ أى مع غيبة موضوعاتها عن حواسنا ـ والرؤيا تقع للمرء متى أغفلت استعمال الحواس ، ومتى كانت النفس نقية متجردة عما يفسد قواها ، استطاعت أن تبين عن الأشياء قبل وقوعها[١] . ولكن الكندى لم ينشئ مدرسة تروج بعده لتعاليمه .

وإذا جاز أن يقال إن الكندى أول من وضع الأساس فى تعليل الأحلام الباطلة فى فلسفة الإسلام ، كان من الحق أن يقال إن الفارابى ـ أكبر فلاسفة الإسلام بعد ابن سينا ـ هو أول من وضع نظرية الأحلام الفلسفية فى الإسلام ، فقد عرض لتعليل الرؤيا الصادقة ؛ ليثبت النبوة عن طريقها ، ولينتهى إلى أن النبى والحكيم صالحان لرياسة المدينة الفاضلة ...

وتعليل الفارابى للرؤيا ، تسلم إليه نظريته فى الاتصال بالعقل الفعال[٢] ، وحسبنا أن نعرف من هذه النظرية أن فى كل سماء من سماوات العالم العلوى عقلا مفارقا ، يشرف على نظامها ويدير حركتها ، وهذه العقول المفارقة تترتب فى تدرج حتى تنتهى بالعقل العاشر أو العقل الفعال[٣] ، وهو الذى يشرف على الإنسانية ، ويكون صلة بين العالم العلوى والعالم السفلى ، وفاصلا روحياً بين العالم الإلهى والإنسانى ، وهو مصدر الشرائع ومبعث الإلهامات الإلهية ، وإن كان مرد الإلهام إلى الله ، ولكن العقل العاشر وساطة بين الله والانسان ، فهو يشبه الملك الموكل أنه رجال الدين ، ومن الممكن للانسان أن يتصل بهذا العقل ، ويأخذ عنه علم ما لم يعلم بالتأمل العقلى

---

(١) رسالة الكندى فى لغتها العربية فقدت ـ فيما نعلم ، وتحتفظ اللغة اللاتينية بنسخة منها ، وقد نقلها الأستاذ محمد متولى بالاستعانة بالاستاذ يوسف كرم ولم تنشر الرسالة بعد

(٢) قارن فى هذا بحثا قيما للدكتور إبراهيم مدكور فى مجلة الرسالة بعددها ١٥٧ و١٧٧

(٣) قارن الفارابى فى مقالته فى معانى العقل (نشر الأب بويج) .

الذى يرقى بعقله إلى درجة العقل المستفاد ، وقد يظفر بهذا صاحب المخيلة القوية[١] ، ومثل هذا الاتصال يقع فى النوم ، فيكون رؤيا صادقة ، أو فى اليقظة فيكون نبوة ، وإن كان الأنبياء أقوى مخيلة من النيام ، ومن أجل هذا استطاعوا الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة[٢] .

وقد ترددت آراء الفارابى عند غيره من فلاسفة الإسلام ، وأخصهم ابن سينا أشهرهم جميعا ، إذ اتخذ الأحلام أداة لإثبات النبوة ، وذهب إلى القول بأن الأحداث منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى ، وفى وسع بعض الناس الاتصال به ، عن طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فإن أفرطت مخيلتهم فى القوة ظفروا بالاتصال أيقاظا وأولئك هم الأنبياء[٣] ، وذلك لأن المخيلة مصدر الصور الباطنية ، ولكن شواغل حسية أو باطنية تصرفها عن أداء وظيفتها[٤] وهذه تقل عند النوم ، وتنقطع فى حال النبوة ، وهكذا سار ابن سينا فى نفس الاتجاه الذى رسمه أستاذه من قبل .

أما ابن رشد فإنه يقرر أن الرؤيا لاتعرض لقوة الحس أو النطق فى النفس ، ولكنها ترجع إلى المخيلة ـ كالأحلام الباطلة أحيانا ـ وهى تتصل بالعقل الفعال البرىء ، ولا يرد كشفها الغيب المحجب إلى مقدمات أو فكر أو روية ، وإلا كان شأنه شأن المعرفة التصديقية التى تحصل لنا عن مقدمات ، والذى يعطى المعرفة

---

(١) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ ـ ٥٢ .

(٣) ابن سينا : إثبات النبوات (الرسالة السادسة فى رسائل الحكمة وهى ص ٨٢ والإشارات ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٢ ـ ٢١٤ .

الغيبية فى الرؤيا هو نفس العقل الذى يعطى المبادىء الكلية فى الأمور النظرية ، وإن كانت هذه تعطى المبادىء الكلية الفاعلة للمعرفة المجهولة ، أما فى حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة ، وماهية النبوة داخلة فى هذا النوع من الإعطاء ، ومن أجل هذا نسب هذا إلى إله ، هو عقل برىء عن المادة ، والمعروف فى العلوم الإلهية أن هذه العقول المفارقة إنما تعطى شبيه ما فى جوهرها[١] .

وعلة اختصاص النوم بهذا الإدراك الشريف ، أن النفس واحدة بالموضوع كثيرة بالقوى ، ولهذا فإنها حين تستعمل بعض قواها الباطنة ، يضعف بعضها الآخر ، وفعل القوة الخيالية فى حال النوم يكون أكمل لا محالة ، إذ تتعطل أثناء النوم الحواس الظاهرة وآلاتها ، وتميل النفس بذلك نحو الحس الباطن[٢] .

حسبنا هذا فى الإبانة عن موقف الفلاسفة والصوفية ورجال الشرع من تفسير الرؤيا الصادقة وتعليلها ، ولنحاول أن نتبين مدى الصواب فى اعتبارها وحيا إلهيا ، يكشف غيبا محجبا :

مناقشة ابن رشد بأنها وحى إلهى :

لكى نناقش وجهات النظر الإسلامية ـ شرعية وصوفية وفلسفية ـ فى اعتبار الرؤيا وحياً لكشف غيب محجب ، ينبغى أن نعرض لموقف القرآن الكريم منها : قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء » وهذه الآية تجمع أصناف الوحى الإلهى الثلاثة، ويراد

---

(١) ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ ـ ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٧ ـ ٨٨ .

بالوحى فيها إلقاء المعنى فى القلب ، وليس فيها ما يشير إلى أن هذا الالقاء أو النفث فى الروع يقع فى يقظة أو منام ، ولكن بعضهم قد فسر الوحى بالرؤيا ، وشبهه بما وقع لإبراهيم عليه السلام فى ذبح ولده فى المنام ، ولم يقصر وقوع هذا الوحى على الأنبياء وحدهم ، واستند فى هذا إلى قوله تعالى : « ... الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » إذ فسر الفخر الرازى البشرى بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، وهذا الاتجاه فى تفسير الآيتين ، قد سرى كالبرق بين المسلمين ، حتى استقر فى أذهانهم أن القرآن يقرر بأن الرؤيا وحى عن الله ، وأنه يقع للأنبياء ومن إليهم من صفوة المؤمنين ، وقد تضمنت الأحاديث الكثير مما يؤيد هذا الاتجاه ، فلم يكن لمسلم بعد هذا أن يستخف بها ، ولكن اختلاطها بالنبوة قد حملهم على سلب التشريع عنها ووضعها بعد الولاية .

ولعل مردّ نزوع المسلمين إلى اعتبارها وحياً إلهيا ، إلى الطبيعة البشرية ، لأن إضافة الصفة الالهية للرؤيا يساير هذه الفطرة ، ولا يعوق التسليم بها إلا الجدل العقلى الذى لا يتمشى فى كثير من الحالات مع الطبيعة فى كل أهوائها ، وقد عرفت هذه الصفة شعوب لا تدين بالإسلام ، ولا بغيره من الديانات المنزلة ، بل اهتدت إليها قبل أن تعرف هذه الديانات ، حتى قرر المؤرخون بأن الكشف الإلهى فى الأحلام عقيدة كل شعب ، بل كل فرد فى الماضى السحيق ، وأن من العبث أن نتساءل من أين وصل الاعتقاد فى الأحلام إلى اليونان مثلا ، فالأحلام قديمة قدم العالم ، وليس لها بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها[1] .

ويلوح لنا أن الذين فسروا الآية القرآنية الخاصة بالوحى ، قد حملوا لفظ الوحى

---

(1) Bouché - Leclercq, L'histoire de la Divination 1. p. 277 - 8.

فوق ما يطيق من معنى ، ولعل هذا يقال فيمن فسروا البشرى بالرؤيا ، فعمموا بذلك وقوع الوحى لغير الأنبياء والرسل ، ولا شك أن هـذا التفسير قد صادف هوى فى نفوس المسلمين ، فوضعوا فيضا من الأحاديث النبوية المنحولة أملاً فى تمكين الرؤيا وتأييدها وحياً من الله .

وإذا كانت الرؤيا بدء الوحى فى رسالة النبى كما ورد فى حديث عائشة فى باب « كيف كان بدء الوحى » فى صحيح البخارى ، فإن ذلك لايستلزم أن تكون رؤيا غير الرسول وحياً من الله ، فليس كل ماجاز له ، يجوز لغيره ، وإلا كان الناس كلهم رسلا ... وإذا كان القرآن قد تضمن رؤى وقعت لبعض الأنبياء وحياً إلهياً ، فإن هذا لايقتضى وقوع مثلها لغير الأنبياء ، فمن الجائز أن يخصهم الله بغير مايخص به سائر الناس .

والمجال يقتضينا الإيجاز فى هذا الصدد ، ولكن ينبغى أن نشير إلى أننا لانتكر إمكان تحقق بعض الأحلام على سبيل المصادفة أو الاستجابة إلى إيحاء أو استهواء ذاتى أو نحو هذا مما تفصله الدراسات السيكولوجية الحديثة ، وقد كان من الحق مع هذا كله ـ أن نقول ـ إن نزوع المفكرين إلى ربط الرؤيا بالدين شىء طبيعى وقع لغير المسلمين من شعوب ، حتى قبل نزول الأديان المقدسة ، وأى شىء فى تاريخ الدنيا اتصل بالمجهول ولم يرتبط فى أذهان الناس بالمعتقدات الدينية .. ؟

ولعل رأينا هـذا يقويه عندنا ما لاحظناه فى موقف جمهور المتكلمين من الرؤيا الصادقة ، فهم أصحاب نزعة عقلية ملحوظة ، وقد أبلوا فى الدفاع عن الإسلام بلاء حسنا ، ولكنهم يعتبرون الرؤيا خيالا باطلا ، وعلل بعض « المعتزلة » هـذا الرأى بفقد شرط الإدراك ، وقيل لأن عادة الله تعالى لم تجر بخلق الإدراك فى النائم[1] ،

---

(١) الأبجى فى جواهر الكلام (نشر الدكتور عفيفى) .

إذ النوم ضد الإدراك ، والضدان لايجتمعان ، وإن كان هذا التعليل لاينفى قيام الوحى فيما يبدو لنا ، من الناحية الشكلية المنطقية المحضة .

تأويل الرؤيا :

ذهب مفكرو الإسلام إلى أن أضغاث الأحلام لاتقبل تأويلا ، ولكنهم أجمعوا على تعبير الرؤيا الصادقة ، بل جعلوا تعبيرها علما له قوانينه الكلية[١] ، وأصوله العامة التى لا يستقيم التأويل بدونها[٢] . ويراد بعلم التعبير معرفة الأمور الغيبية عن طريق التخيلات النفسانية التى تقع أثناء النوم[٣] . وهو يستلزم تفكير المرء فى الصور التى وعتها حافظته مما رآه فى رؤياه ، ثم محاولة إرجاعها إلى مايشبهها من مدركات الحس التى وعاها من قبل ، ثم استخدام الخيال والذاكرة فى الانتقال من شىء إلى شىء موجب له إلى آخر مؤد إليه ، وهكذا حتى يهتدى آخر الأمر إلى أول شىء كان السبب فى تخيل هذه الصورة الأخيرة التى وقعت فى الرؤيا[٤] ، وبتجريد مدركات النوم عن الصور التى كساها فيها الخيال على هذا النحو ، يصل المعبر إلى حقيقة هذه المدركات[٥] والتعبير لا يتطلب معرفة المناسبات التى بين الصور ومعانيها فحسب ؛ بل يقتضى معرفة مراتب النفوس التى تظهر الصورة فى حضرة خيالاتهم ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٧ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٣٩٩ — ٤٠٠ يردد مايقول ابن خلدون من غير إشارة إليه .

(٢) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢ — ١٣ وابن شاهين فى الإشارات ص ٣٦٢ والسالمى فى الاشارة فى علم العبارة ص ٣ +

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٩١ ، طاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤ والتهانوى فى مقدمة الكشاف ص ٤٤ وقارن ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤١

(٤) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

ومن أجل هـذا اختلفت الصورة الواحدة باختلاف مراتب الأشخاص[١] ، والمطلع على كتب التعبير يلاحظ أنها تحوى « جداول » أو قوائم بأسماء الأشياء التى يحتمل أن تظهر فى الأحلام ، والمعانى التى يحملها كل منها ، ويلاحظ أن الرمز الواحد يحمل معانى كثيرة تختلف باختلاف الأمم والملل والأفراد ، بل قد تختلف عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله ، وإن كان فى الرموز عنصر مشترك بين الشعوب على اختلاف أجناسها وتباين أديانها ، مما يرجع إلى وحدة الطبيعـة البشرية فى كل زمان ومكان . وهذا الاختلاف استوجب توافر صفات كثيرة فى المعبر لا يقوى على تأويل الرؤيا بدونها ، ويظهر أن المستشرق مرجليوث Margoliouth قد فاتته هذه الملاحظة حتى صرح فى معرض حديثه عن كتاب النابلسى فى تعبير الأحلام، أنه يثير الحيرة ويدعو إلى الاضطراب ، بكثرة مايورده من معانى الرمز الواحد ..![٢] مع أن أكثر المعبرين ـ ومنهم النابلسى ـ لا يذكرون المعانى التى تحملها رموز الأحلام ، إلا بعد مقدمة يعرضون فيها لأصول التعبير وقوانينه العامة .

على أن أهل التعبير لا يقنعون بالصفات التى أوجبوا توافرها فى المعبر ، والقوانين التى ألزموه باتباعها ، فيقولون إن التعبير وإن كان ضرباً من الحدس والفطنة[٣] يعتمد على الاطلاع والذكاء والحذق ، إلا أن أهله لو اعتمدوا على كتب التعبير وحدها ، عجزوا عن تعبير الكثير من الرموز ، لأن التعبير يتوقف ـ إلى جانب حذق المعبر ـ على « الفتح عليه بهذا العلم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[٤] ، وذهب

---

(١) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤١

(2) Margoliouth, art. Muslim Divination (Encyclopedia of Religion and Ethics).

(٣) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٤) النابلسى : تعطير الأنام ج ١ ص ٨ وابن شاهين فى الإرشادات فى علم العبارات ص ٣٦٢

ابن خلدون إلى أن القرائن التى تعين المعبر على تعبير الرؤيا ، منها ماينقدح فى نفسه بالخاصية التى خلقت فيه ، وكلٌ ميسرٌ لما خلق له[١] . وصرح ابن عربى بأن العلم بالتعبير انكشاف لا يحصل إلا بالتجلى الإلهى من حضرة الاسم الجامع بين الظاهر والباطن[٢] ، وأيد هذا الاتجاه كبار المعبرين[٣] .

نماذج من الرؤيا الصادقة وتحليلها :

١ — قيل إن أم الإمام الشافعى ، رأت فى منامها بعد أن حملت به ، أن « الشترى » خرج من فرجها ، وانقضّ بمصر ، ثم تفرق فى كل بلد قطعة .. ! فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذا فى مصر ، ينشر علمه فى أكثر البلاد طولا وعرضا — فكان الأمر كما قالوا[٤] .

٢ — قيل إن رجلا رأى نفسه يختم على أفواه الرجال والنساء وفروج هؤلاء ، فقال ابن سيرين فى تعبيرها : إنه مؤذن ، أذن فى رمضان قبل مطلع الفجر . فكان الأمر كما قال[٥] .

٣ — قيل إن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها ، فعبر أبوها رؤياها ، بموته وموت الرسول والفاروق ، ودفنهم فى حجرتها جميعاً . وصحّ بعدُ ماقال[٦] .

---

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٤١٧ (٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤١

(٣) قارن الفخر الرازى : مفاتيح الغيب جـ ٥ ص ١٣٩ والزمخشرى فى الكشاف جـ ١ ص ٦٦١ (٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ٢ ص ١٠٨

(٥) طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة جـ ١ ص ٢٧٤

(٦) الأبشيهى جـ ٢ ص ١٠٨

٤ — حين كان معالى أستاذنا مصطفى باشا عبدالرازق ، سكرتيراً للمعاهد الدينية، كان الشيخ سليم البشرى شيخاً للجامع الأزهر ، ومرض معاليه ، فزاره الشيخ فى منامه ، وفى الصباح زايله المرض .. ! فعبَّر هـذه الرؤيا أحد الذين سمعوا روايتها فى هـذه الجلسة ، بأن اسم الشيخ الأكبر دالّ على مضمون الرؤيا ، سليم تعبر عن السلامة ـ العافية ـ والبشرى ترمز إلى البُشْرى ـ بالشفاء .

٥ — فاخر الشعرانى بوقوع كثير من الرؤى له ، يوحى بها الله عسى أن يحتاط للأمور المقبلة ، إن كانت الحيطة ممكنة ، فمن ذلك أنه كان وصياً على أبناء أخيـه ، فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى فى تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً فى خلوته ليخرجوا منه ، فأدرك أنه أخطأ فى أمره السالف ، وعدل عنه ..! وإذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته ، وساورته الشكوك فيما سمع ، رأى فى ليله من اغتيب ، يلبس البياض ، فيدرك كذب المغتاب .. ! ... الخ[1]

٦ — وروى الرحالة « لين » E.Lane أن الإمام الشيخ المهدى ، قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عنـد العامة ـ هو الشيخ أحمد البهى ـ كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير ، فسمعه يؤرخ حياة الحسين ، ويعقب قائلا إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف فى القاهرة ، وكان « البهى » يعتقد غير ذلك ، فآلمه ماسمع ، ولـكنه لم يعترض على الشيخ احتراما لشهرته ، وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس ، انطلق إلى بيته ، وأقام الصلاة ودعا ربه ـ وهو جاث على ركبتيه ـ أن يريه رسول الله فى رؤيا صادقة ، يعرف منها حقيقة هذه المسألة ؛ فلما استسلم للنوم رأى أنه فى الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى ، فلما دنا من قبته ، رأى النور يشع منها

---

(١) الشعرانى : لطائف المنن ج ١ ص ٩٨ ـ ١٠٠

فدخل المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه ـ بعد تبادل التحية ـ أن يقرئ رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه ، وآخر عن يساره ، فجهر بقوله : السلام عليك يا رسول الله ، وكررها ثلاث مرات والدمع يجرى على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدنُ منى يابنى فقاده الشريف وأجلسه فى حضرته ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يابنى . فقال له : يارسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا .؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلأ الرجل غبطة وطمأنينة ، واستأذن الرسول فى أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير فى درسه ، فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة ، فاستيقظ من نومه ، وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه (الأمير) فلما بلغ الباب دقّه بعنف أفزع سكان البيت ، ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته . ! فلما علم الشيخ بصاحب الصوت ، أدهشه مجيئه فى هذا الوقت المبكر ، وظنّ سوءا ..! وأخذ البهى ـ من فرط التأثر ـ يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام ، أو يقبل يده كما جرت عادته معه . وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالباب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر ، والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين ..! فنهض الشيخ الأمير لتوه ، وقال هيا بنا لزيارة الحسين ..! ولما دخل القبة قال : السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إنى أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهى شاهدة على ذلك ؛ لأن رؤيا الرسول حق ... الخ[1] .

(1) E. W. Lane, The Manners and Customs of Modern Egyptions p. 219 - 221.

حسبنا من نماذج الرؤيا ما أسلفنا ، وقبل تحليلها ننبه القراء إلى أن تأويل الأحلام وتحليلها ، لا يكفي فيه أن تعرف أحداث الحلم ومناظره ، وإنما يتطلب التأويل معرفة الكثير عن حياة الحالم ، ولا سيما تجاربه في يومه السابق ، وقد أشرنا في حديثنا عن التعبير إلى بعض مستلزماته وأكثرها مسلم به في الدراسات السيكولوجية الحديثة ، ولكن الكثير مما تلزم معرفته ، غير متوافر لنا بصدد هـــذه الأمثلة ، ومع هذا فسنحاول تأويلها في ضوء معلوماتنا عنها ، موجزين على قدر الاستطاعة :

١ — أما الرؤيا التي روينا عن أم الشافعي ، فالراجح أنها مختلقة ، إذ يكاد يكون من المقطوع به ، أنها لا تعرف «المشترى» الذي ورد اسمه في القصة ، وقد حررنا ذكر هـذا المثال في صدر نماذجنا ، لنقول إن الكثير من الأمثلة التي وردت في المصادر الإسلامية مختلق أو مبالغ فيه ، رغبة في تأييد القول بأن الرؤيا قد تكون وحياً إلهيا . فإذا قيل إن كلمة « المشترى » هي المختلقة ، وأما القصة فصحيحة ، قلنا إن هذا محتمل ، وعندئذ يكون تأويل الرؤيا ، على الوجه الآتي :

كل أم تعلق على وليدها المنتظر آمالا كبارا ، ولا غرابة في أن تتمثل هـذه التمنيات في الحلم نوراً يشع ، ويتوزع في البلاد طولا وعرضا ، ومثل هذا الحلم يقع للأمهات كثيراً ، وإن اختلفت صوره ومناظره ، والأم التي تتكرر وقوع مثله لها ، تعطينا الدليل على أنها تنسى أحلامها أو بعضها ، وقد حرصت المصادر الإسلامية على رواية الحلم السالف ، لأن الشافعي إمام فذ في تاريخ الإسلام ، ولو وقع عن غيره ، وذكرته صاحبته بعد يقظتها ، لأغفل التاريخ أمره .! ويؤول مثل هذا الحلم ، بأن صاحبته تتمنى أن يكون طفلها في مقبل أيامه عالماً ممتازاً ، لأن النور كثيراً ما يرمز إلى هَدْى العلم والدين ونحوه ، أما تحققه فأكبر الظن أنه لا يكون إلا على سبيل المصادفات .

٢ — والمثال الثانى يرينا أن الرؤيا — عند ابن سيرين — لاتدل على المستقبل دواما، وقد أشار إلى هـذا النابلسى ، ونص على أنها تكشف المغيب فى الماضى والحاضر كذلك[1] ، وتأويل هـذا المثال معقول ، والحلم فيه ترداد لخواطر جرت فى الذهن أثناء اليقظة .

٣ — أما حلم السيدة عائشة ، فردّه — فيما يلوح — إلى إعجابها بهؤلاء الثلاثة ، والمظنون أن الوساوس كانت تساورها — فى اليوم السابق لوقوع الحلم — بصدد موتهم المنتظر ، وتجربة اليوم السابق ، وهى توقع نزول الموت بهؤلاء الأعزاء ، كفيلة بأن تنشىء مثل هـذا الحلم ، وقد تمثلوا فى أقمار ، رمزاً لنور الهداية الدينية التى كانوا يقومون بها يومذاك ، وليس غريباً أن يموت هؤلاء الثلاثة بعـد ذلك ، فالموت هو المصير المحتوم لكل إنسان . بقى تحقق دفنهم فى حجرتها ، وتفسير هذا — فيما يبدو لى — أنه كان استجابة من القائمين بأمر الدفن ، لما ظنوا أنه رؤيا صادقة ، فالمؤرخون يقولون إن المسلمين قد اختلفوا — بعد وفاة الرسول — فى مكان دفنه ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وكاد الرأى يستقر على دفنه فى المسجد ، حيث كان يخطب ويعظ ويصلى بالناس ، ولكن السيدة عائشة نفسها هى التى حالت دون ذلك ، إذ قالت إن النبى كان عليه رداء أسود حين اشتد به وجعه ، فكان يغمه مرة على وجهه ، ويكشف مرة عنه ، وهو يقول : قاتل الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد..! فعدلوا عن دفنه فى المسجد ، وعندئذ قضى أبو بكر — وهو الذى عبّر رؤيا عائشة — بين الناس إذ قال : إنى سمعت رسول الله يقول «ماقُبض نبى إلا دفن حيث يُقبض»

---

(١) النابلسى : تعطير الأنام جـ ١ ص ٥ .

فتقرر ـ عندئذ ـ أن يحفر له مكان الفراش الذى قبض فوقه ..![1] أما دفن أبى بكر مع الرسول ، فمرجعه إلى أنه هو الذى أوصى بذلك ..![2] وأما دفن عمر معهما ، فمرده إلى أنه هو الذى استأذن السيدة عائشة فى ذلك قبيل وفاته ..!

٤ — أما حلم معالى الباشا ، فإن طريقة تأويله كانت شائعة عند المسلمين الأول ولكن التشابه بين معانى الأسماء التى يظهر أصحابها فى الحلم ، والصحة والعافية للمريض ، لا يبرر جعل الأول علة للثانى .! ولعل الأصح أن يقال إن معاليه كان فى ليلة الحلم ، على وشك البرء من مرضه ، والمعروف عند المحدثين من علماء النفس ـ بل هذا رأى فطن إليه أرسطو قديما ـ أن الإحساسات الباطنية تكبر فى الأحلام ، أما فى اليقظة فإن مشاغلنا اليومية تصرف انتباهنا عن هذه الإحساسات[3] ، فإحساس معاليه الباطنى بدنو البرء من المرض ، كان قبل الحلم ضعيفاً غير مشعور به أثناء اليقظة وعند النوم قوى هذا الإحساس وأصبح مشعوراً به ، فكان بهذا مثاراً لحلم ، تجلى فى طريقة رمزية كانت معروفة عند المسلمين كما يعرف معاليه . وليس فى الحلم بعد هذا أية غرابة .

٥ — أما ما رويناه عن الشعرانى ، فمرجعه ـ فيما يبدو ـ إلى أنه حين أصدر أمره إلى أولاد أخيه بملازمة حجرتهم ، شعر ـ أثناء ذلك أو بعد ذلك بقليل ـ أنه يقسو على أيتام ، وهـذا الشعور ليس غريباً على رجل دين وتصوف ، وربما كان

---

(١) محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد ص ٤٩٣ ـ ٤ (مع ملاحظة أنه لم يشر إلى هذه الرؤيا

(٢) محمد حسين هيكل باشا : أبو بكر الصديق ص ٣٥٤

(٣) ومعنى هذا أن أرسطو الذى أنكر الرؤيا الصادقة ، قد سلم بتنبؤ الحلم ببدء الأمراض التى تكون فى اليقظة غير مشعور بها . وسلم المحدثون من علماء النفس بذلك . أنظر فى تفصيل هذا الرأى ، كتابنا «الأحلام» ص ٦٨ و ١٤٣ (فى بيان رأى أرسطو) ، ص ٥٣ ـ ٥٤ و ٧٣ ـ ٧٤ (فى بيان رأى المحدثين من علماء النفس) .

شعوره من الضعف بحيث لم يقو على صرفه عن مسلكه إزاءهم ، فلما استسلم للنوم ، كبر عنده ماخطر له فى يقظته ، وتمثلت له الصورة التى رآها ، فعدل عن مسلكه ..! أما حلمه الثانى فإنه يعترف فى رواية له ، بأنه إذا ارتاب فى كلام المفتاب وهو يستمع إليه ، رأى فى منامه أن الذى كان موضع غيبة برىء الساحة ..! فالشك قائم فى اليقظة ، ولا غرابة فى أن يبدو الشك المقلق فيما يسمع ، يقينا بكذبه إذا نام .! ومثل هذا يقال فى سائر مايرويه مما يحسبه وحياً من الله .

٦ — بقى حلم الأستاذ « لين » E. W. Lane ، وبساطته سر طرافته ، إنه حلم صريح سافر ، وليس مقنعاً فى رموز تحتاج إلى تأويل ، وهو — فيما يرى بعض المحدثين من علماء النفس — تحقيق رغبة مضغوطة Suppressed Wish - fulfilment[1] لم تشبع إبان اليقظة ، فتحققت فى المنام ، هاله أن يكون رأس الحسين غير موجود فى مشهده ، فصلى وطلب إلى الله أن يكشف له عن الحقيقة ؛ والأصح أن نقول إنه طلب إلى الله أن يريه دليلا على صحة اعتقاده ، فى أن الرأس موجود فى مشهده ..! فكان له ما أراد . وأذعن شيخه لهذه الرؤيا ، اعتقاداً منه بأن رؤيا الرسول حق ... الخ

وينبغى أن نقول أخيراً ، إن تأويلاتنا لهذه النماذج من الأحلام ، مجرد ترجيحات لا تمنع من وجود احتمالات أخرى ، فليس يتطلب تأويل الحلم ، لاكتفاء بعرض أحداثه ومناظره ، ولا بد للمحلل من الاتصال بصاحب الحلم ، ومعرفة الكثير

---

(١) الرغبة المضغوطة Suppressed, fr. repressé يعمد الإنسان إلى إخفائها وعدم المجاهرة بها شاعرا واعيا ، أما الرغبة المكبوته repressed. fr. refoulé فإنها تسكبت على غير وعى وشعور من صاحبها .

عن حياته ، وكشف المجهول من باطن نفسه ، واستكناه الخواطر التى تشغل باله ، ولا سيما ما دار منها بخلده فى اليوم السابق على وقوع حلمه ، وغير هذا من مستلزمات فن التأويل والتحليل ، مما يعوزنا بصدد الأمثلة التى عرضناها موجزين ، وكم من حلم استلزم تأويله جلسات طوالا عند المشتغلين بتحليل الأحلام من علماء النفس ، فحسبنا ما ذكرناه ، مجرد إشارات إلى بعض اتجاهات التحليل فى الأحلام .

حسبنا هذا عن موقف مفكرى الإسلام من الرؤيا الصادقة ، فقد كانت الأحلام — فى شتى صورها — موضع بحث مفصل تناولنا فيه ما قيل بصددها قديما وحديثا ، فليرجع إليه من شاء[1] .

---

(١) الأحلام — (دراسة مقارنة) ظهر فى سبتمبر ٩٤٥